رثاء عمر المختار بين مطران وشوقي

"دراسة تحليلية نقدية موازنة"

إعداد

د/ فاطمة محمد قطب محمد

مدرس الأدب والنقد

في كلية البنات الإسلامية بأسيوط

(العدد الرابع والثلاثون)

(الإصدار الثاني .. أكتوبر)

(١٤٤٢هـ - ٢٠٢١م)

رثاء عمر المختار بين مطران وشوقي
"دراسة تحليلية نقدية موازنة"

فاطمه محمد قطب محمد .

قسم الأدب والنقد ، كلية البنات الإسلامية بأسيوط، جامعة الأزهر، مصر.

البريد الجامعي الإلكتروني: fatmakotb973.el@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

الرثاء أحد أهم أغراض الشعر التي عرفها الشعراء عبر العصور، وأصدقها عاطفة فهو ينبع من نفس ملتاعة على فقد حبيب رحل عن الدنيا ، ويتنوع الرثاء بتنوع المرثي وعلى غراره تختلف العاطفة ، ومن أنواع الرثاء: رثاء الزعماء والأبطال كعمر المختار أسد الصحراء الذي كان . ولا يزال . رمز الشجاعة والبطولة ، فقد أعدم شنقا بأيدي الطليان بعد أن قاومهم ثلاثين عاما تقريبا ، وهذه الحادثة الأليمة كان لها وقعها المدوي على العالم العربي بأسره، فرثاه العديد من الشعراء، من بينهم خليل مطران رائد الشعر الرومانسي، فقد رثاه بقصيدة عدد أبياتها خمسة وثلاثون بيتا، وأحمد شوقي رائد الشعر الكلاسيكي رثاه بقصيدة عدد أبياتها أربعون بيتا ، واخترت هاتين القصيدتين للموازنة بينهما لما فيهما من قيم أخلاقية رفيعة، وفنية رائعة؛ محاولة التمييز بينهما في الألفاظ والأساليب والصور والموسيقا الشعرية، وقد اعتمدت في ذلك على المنهج الفني، ومن أهم نتائج البحث: أن كلا الشاعرين احتفظ بشكل القصيدة العمودية المتمثل في وحدة الوزن والقافية، واتسمت قصيدتيهما بالجودة وصدق العاطفة وعذوبة الموسيقا، وكانت قصيدة شوقي مزيجا بين الأصالة والتجديد، فتحققت فيها بعض ملامح الرومانسية كما توفرت في قصيدة مطران، وكانت صور شوقي قوية موحية نابضة مليئة بالحياة والحركة أكثر من صور مطران.

الكلمات المفتاحية: الرثاء، عمر المختار، مطران ، شوقي ، دراسة، موازنة.

Lamentation of Omar Al-Mukhtar between Mutran and Shawqi, " Balancing Critical Analytical Study"

Fatma Mohamed Kotb Mohamed .
Department of Literature and Criticism, The Islamic Girls College in Assiut, Al Azhar university, Egypt.
Email: fatmakotb973.el@azhar.edu.eg

Abstract: Lamentation is one of the most important purposes of poetry that poets have known through the ages, and the truest of which is an emotion, It stems from a soul sad over the loss of a lover who has passed away from life, and the lament varies according to the dead person, and like it varies the emotion, Among the types of lament: the lament of leaders and heroes such as Omar Al-Mukhtar, Desert Lion who was and still is a symbol of courage and heroism, He was executed by hanging by the Italians after he resisted them for nearly thirty years, This sad incident had a resounding impact on the entire Arab world, many poets lamented it, Such as Khalil Mutran the pioneer of romantic poetry, lamented him with a poem of thirty-five verses and Ahmed Shawqi, the pioneer of classical poetry, with a poem of forty verses, And I chose these two poems to balance them Because have lofty moral values And great art, Trying to distinguish between them in words, styles, images, and poetic music , and I adopted on the technical method, and among the most important results of the research: Both poets retain the vertical poem form represented by the unit of weight and rhyme, and each of them was characterized by quality, sincerity of emotion and sweetness of music, Shawqi's poem was a mixture of originality and renewal. In it, some the Properties of romance were achieved, that was available in a Mauritan 's poem, Shawky's pictures, were strong, suggestive, vibrant and full of life and movement, more than Moutran 's pictures.

Keywords: Lamentation, Omar Al-Mukhtar, Mutran, Shawqi, Study ,Balancing.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، الذي خلق كل شيء فقدره تقديرا، وعلم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أفصح العرب لسانا، وأبلغهم بيانا وخير من جاهد في سبيل الله، وأفضل المناصرين للإسلام والمسلمين وعلى آله وصحبه أجمعين .... **أما بعد** :

فيجب الافتخار والاعتزاز بالشهداء الأحرار الذين ضحوا بأنفسهم في سبيل الله لنجدة وطنهم وتحريره من المحتلين، ومنهم الشهيد - بإذن الله تعالى - عمر المختار الشجاع المغوار الذي ظل يناضل ضد الطليان ما يقارب من ثلاثين عاما، إلى أن سقط أسيرا في أيديهم فأعدموه شنقا ، ولكنه ظل حيا في قلوب العرب والمسلمين، حيث رثاه عديد من الشعراء الأقحاح على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم من أمثال خليل مطران وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم الكثير.

ومن ثم فقد اخترت قصيدتي مطران وشوقي في رثاء عمر المختار؛ لما في القصيدتين من قيم فنية راقية أصيلة تكشف عن شعور كلا الشاعرين تجاه الأبطال الصناديد - أمثال عمر المختار - المدافعين عن أوطانهم بما أوتوا من قوة، حيث وقفوا في وجوه المحتلين الذين لا يراعون في مؤمن إلًّا ولا ذمة.

ويعد مطران رائد الشعر الرومانسي وشوقي رائد الشعر الكلاسيكي، فأردت أن أتلمس أوجه التلاقي والاختلاف بين خصائص شعرهما الرومانسي والكلاسيكي من خلال رثائهما للبطل المغوار عمر المختار، ومعرفة كيفية الرثاء عند الكلاسيكيين والرومانسيين ؛ لذا لم أوازن بين قصيدتي أحمد شوقي وحافظ إبراهيم فكلاهما من رواد الكلاسيكية.

وقد اعتمدت في هذا البحث على المنهج الفني، فقمت بتحليل القصيدتين ووقفت عند معانيهما، وجماليات تفصيلاتهما؛ محاولة نقد القصيدتين والتمييز بينهما في الألفاظ والأساليب والصور الفنية والموسيقا الشعرية.

هذا ولم توجد دراسة سابقة تناولت الموازنة بين قصيدتي مطران وشوقي في رثاء عمر المختار، ولكن هناك دراسات سابقة تتعلق بالموضوع بشكل غير مباشر، منها:

ـ النزعة الإسلامية في شعر شوقي، تأليف: د.عزت فارس، الطبعة الأولى ٢٠١٠م، دار يافا للنشر والتوزيع.

ـ دراسات أدبية في الشعر العربي الحديث ، تأليف : محمد عبد الغني المصري ، الطبعة الثالثة ، ٢٠٠٦م ، دار الفرقان ، عمان.

ـ عمر المختار في التاريخ والأدب وفي عيون الشعراء ، تأليف: محمد حامد الحضيري، مطبعة الهدى بالقاهرة ، ١٩٩٩م .

ـ خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، تأليف: ميشال جحا أستاذ الأدب الحديث في كلية الآداب الجامعة اللبنانية ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م، دار الميسرة بيروت.

هذا وقد جاء بحثي بعنوان [رثاء عمر المختار بين مطران وشوقي دراسة تحليلية نقدية موازنة]، وقد جاء وفقا لمنهج وطبيعة البحث في مقدمة وتمهيد وستة مباحث:

المقدمة وتشمل سبب اختياري للموضوع، ومنهج وخطة البحث والدراسات السابقة.

التمهيد: عمر المختار شهيدا، وصلة مطران وشوقي به.

المبحث الأول: "رثاء مطران لعمر المختار".

المبحث الثاني: "رثاء شوقي لعمر المختار".

المبحث الثالث: "الألفاظ والأساليب في التجربتين".

المبحث الرابع: "الموسيقا والإيقاع في التجربتين".

المبحث الخامس: "الصورة الفنية في التجربتين".

المبحث السادس: "الوحدة العضوية والموضوعية في التجربتين".

الخاتمة وتشمل ما توصلت إليه من نتائج؛ من خلال الموازنة بين القصيدتين، وذكرت المراجع التي استعنت بها. **وبعد** ..

فقد حاولت جاهدة من خلال هذه الدراسة الكشف عن أوجه التلاقي والاختلاف في الخصائص الشعرية الفنية بين الشاعرين، من خلال رثائهما للبطل عمر المختار؛ فإن أفلحت فهو توفيق من الله عز وجل، وإن أخفقت؛ فالكمال لله وحده، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

التمهيد

عمر المختار شهيدا ، وصلة مطران وشوقي به

ولد عمر المختار من أبوين صالحين عام ١٨٦٢م، ونشا في بيت عز وكرم، توفي والده وهو صغير وهو في رحلته لأداء فريضة الحج، وتولى الشيخ حسين الغرياني رعايته وأخيه، فأدخلهما مدرسة القرآن الكريم، ثم التحقا بالمعهد لينهلا من العلوم الشرعية، وتفوق عمر على أقرانه بصفات عدة منها: الشجاعة والنباهة والكرم ومتانة الخلق ورجاحة العقل(١)، وعندما اندلعت الحرب الليبية الإيطالية ١٩١١م أمر بتجنيد كل من كان صالحا للجهاد فاستجاب الكثير لندائه، ثم شرعوا في مهاجمة العدو الإيطالي ليلا ونهارا(٢)، وكان عمر المختار وأنصاره مصدر قلق للعدو المستعمر الذي عجز عن إخضاعهم له، إلى أن تم تعيين غراسياني الإيطالي حاكما لبرقة، وقد كان هذا الجنرال عند قومه معظما ومقدما، وقام بأعمال عسكرية شنيعة للغاية، وكان نصرانيا حقودا على الإسلام والمسلمين لم يرقب في مؤمن إلًّا ولا ذمَّة(٣)، فبشع في الشعب الليبي وألحق بهم الأضرار، فقد كانت القوات الإيطالية معززة بالطائرات التي تلقي قنابلها على السكان العزل من شيوخ ونساء وأطفال، وسمحوا لجنودهم أن يعبثوا بالسكان في البيوت والأسواق والمساجد وفي كل النواحي، تصرفات وحشية لم تخطر على بال أحد، نهبوا وقتلوا وأحرقوا كل ما مروا به، ولم يتركوا أي جريمة تخطر ببالهم إلا ارتكبوها ، قتلوا العلماء والمشايخ، هتكوا الحرمات وألقوا بالمصاحف القرآنية في الإصطبلات تحت سنابك الخيل؛ وبالكتب العلمية التي أوقدوا بها النار تحت قدورهم لطهي

(١) انظر: الشيخ الجليل عمر المختار(نشأته ـ جهاده ـ استشهاده)، تأليف: د. عبد الخالق النجمي، الطبعة الأولى ٢٠١٦م، دار أمجد للنشر والتوزيع ، ص٩.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٨ ـ ٢٩.

(٣) انظر: عمر المختار نشأته . أعماله . استشهاده ، تأليف : د. على الصلابي، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م ، دار الجوزي بالقاهرة، ص٤٨.

طعامهم، ونهبوا حلي النساء، وأجبروا الرجال والشبان الذين تتراوح أعمارهم من ١٥ إلى ٤٠ سنة على الانخراط في قوات جيشهم، وأما الصغار الذين تتراوح أعمارهم من ١٤ سنة؛ فقد أخذوا بالقوة من أهليهم وأرسلوا إلى إيطاليا بحجة تعليمهم، ولكن في الحقيقة من أجل تنصيرهم(١)، ولم يتخل المختار عن قضية بلاده، واستمر في جهاده ضد الطليان إلى أن وقع أسيرا، وبعد أن اتخذوا القرار بإعدامه شكلوا محكمة صورية حاول فيها محامي المختار أن يخفف الحكم عليه من الإعدام إلى الحبس مدى الحياة لكبر سنه، ولكنهم رفضوا وأصروا على إعدامه شنقا(٢)، ولم يكتفوا بذلك بل "حرصوا على أن يجمعوا حشدا عظيما لمشاهدة التنفيذ، فأرغموا أعيان بنغازي وعددا كبيرا من الأهالي من مختلف الجهات على حضور عملية التنفيذ"(٣)، وفي اليوم السادس عشر من سبتمبر من صباح يوم الأربعاء من سنة ١٩٣١هـ عند الساعة التاسعة صباحا نفذ الطليان حكم الإعدام شنقا في شيخ الجهاد وأسد الجبل الأخضر، وكان يسير إلى المشنقة بخطى ثابتة، ويداه مكبلتين بالحديد، وصعد سلالم المشنقة وهو يؤذن بصوت هاد آذان الصلاة، وعلى ثغره ابتسامة راضية، وظل يردد الشهادتين: (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله)، وعندما وضع الجلاد حبل المشنقة في عنقه، قال قول الله . تبارك وتعالى: (٤)﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾، ومن جبروت الطليان

(١) انظر: الشيخ الجليل عمر المختار(نشأته ـ جهاده ـ استشهاده) ، د. عبد الخالق النجمي ، ص١١٥ ـ ص١١٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٧٨.

(٣) عمر المختار نشأته . أعماله . استشهاده ، د. على الصلابي ، ص١١٠.

(٤) سورة الفجر: الآيتين ٢٧ ـ ٢٨.

وقبحهم هو رميهم للمختار من الطائرة بعد إعدامه[١] أسأل الله . ﷻ . أن يتغمده برحمته ويسكنه فسيح جناته.

وبعد فقد كانت شخصية المختار محل إعجاب وتقدير الجميع حتى أعدائه كالسفاح غراسياني وأمثاله، فموقفه البطولي الرائع أحيا في قلوب الناس معاني أخلاقية سامية كالإيثار والتضحية والإخلاص والوفاء، وانبرت أقلام الأدباء يرثون فيه البطولة والشجاعة، فهناك العشرات من القصائد التي نظمت في تأبينه والإشادة بجولاته وصولاته ضد الطليان[٢].

وهذا النوع من الرثاء يسمى رثاء الزعماء والعلماء، وفي هذا النوع يقوم الشعراء بندب هؤلاء الرموز الذين قدموا خدمات جليلة لبلادهم ، "وحين يفيق الشاعر من لوعته؛ وتنطلق ذاته بعيدا عن العذاب والخوف يعود فيقرع أسماع الناس بأمجاد الراحلين؛ ويشيد بمنزلتهم السياسية، أو العلمية، أو الأدبية، أو الأخلاقية، أو الاجتماعية، فهو لا يبكي ولا ينوح ، وإنما يطلب مواصلة الحياة على هذا النحو أو ذاك، وهذا ما نسميه التأبين"[٣]، ومن خلال التأبين يعبر الشاعر عن حزنه تجاه الفقيد، ويشيد بمنزلته العظيمة في القلوب؛ لتظل ذكراه محفورة في مخيلة الأجيال من بعده وليحتذوا حذوه، وقد وصف حافظ إبراهيم جرائم الطليان الشنيعة؛ وأفعالهم النكراء في حق الشعب الليبي، فقال (من بحر الرمل): [٤]

---

(١) انظر: عمر المختار نشأته . أعماله . استشهاده، د. على الصلابي، ص١١٠ـ ١١١.

(٢) حشد المؤلف مجموعة كبيرة من الأشعار التي نظمها الشعراء في ذكرى استشهاده ، في كتاب الشيخ الجليل عمر المختار(نشأته ـ جهاده ـ استشهاده) ، د. عبد الخالق النجمي ، من ص١٩٢ ـ إلى ص ١٩٩.

(٣) شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم، د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم ، وكالة المطبوعات عبد الله حريمي ، الكويت ١٩٨٢م ، ص٩.

(٤) ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وشرحه : أحمد أمين ـ أحمد الزين ـ إبراهيم الإبياري، الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٧م، ص٣٨٠.

طَمَــعٌ أَلْقَــى عَــنِ الغَــرْبِ اللِّثَامَــا ∴ فَاسْـتَفِقْ يَـا شَـرْقُ وَاحْـذَرْ أَنْ تَنَامَـا
وَاحمِلِـــي أَيَّتُهَـــا الشَّـــمْسُ إِلَـــى ∴ كُـلِّ مَـنْ يَسْـكُنُ فِـي الشَّـرْقِ السَّـلَامَا
وَاشْـــهَدِي يَـــوْمَ التَّنَـــادِي أَنَّنَـــا ∴ فِـــي سَـبِيلِ الحَـقِّ قَـدْ مِتْنَـا كِرَامَـا
مَــادَتِ الأَرْضُ بِنَــا حِــينَ انْتَشَــتْ ∴ مِـــنْ دَمِ القَتْلَـــى حَـــلَالًا وَحَرامَـــا
عَجَـــزَ الطُّلْيَـــانُ عَـــنْ أَبْطَالِنَـــا ∴ فَـــأَعلَّوا مِـــنْ ذَرَارِينَـــا الحُسَـــامَا
كَبَّلُـــــوهُمْ قَتَلُـــــوهُمْ مَثَّلُـــــوا ∴ بِـــذَوَاتِ الخِـــدْرِ طَـــاحُوا بِاليَتَـــامَى
ذَبَحُـــوا الأَشْـــيَاخَ وَالزَّمْنَـــى وَلَـــمْ ∴ يَرْحَمُـــوا طِفْـــلًا وَلَـــمْ يُبْقُـــوا غُلَامَـــا

وتحدث مطران عن جرائم الطليان من خلال رثائه لعمر المختار في قصيدة بلغ عدد أبياتها خمسة وثلاثين بيتا، فقد كان مطران يكره الظلم والاضطهاد ، "فعندما وقع وطنه لبنان تحت السيطرة التركية ثار على الظلم ، وكان يذهب إلى أعالي الأشرفية مع بعض رفاقه ينشدون نشيد الثورة رمز الاستقلال، فارتابت السلطة التركية المستبدة في نشاط الشباب ، وهو لم يكن يبلغ السابعة عشرة من عمره، ودبرت له من يغتاله، وكان أن نجا من الاغتيال وسافر إلى فرنسا، ولم يطلق حبه للحرية فاتصل بجماعة تركيا الفتاة ، مما جعل الحكومة التركية تطلب من الحكومة الفرنسية إبعاده" [1].

فتعرض مطران للاغتيال لا يثنيه عن واجبه تجاه وطنه؛ الذي تركه رغما عنه؛ عندما ضيقت السلطات التركية عليه، فاضطر للسفر إلى فرنسا، والانضمام لجماعات تنادي بالحرية ، فقال . مصرا في الدفاع عن قضية بلاده . (من مجزوء الكامل) : [2]

لَا قَـــوْلَ غَيْـــرَ الحَـــقِ لِـــي ∴ قَـــوْلٌ وَهَـــذا الـــنَّهْجُ نَهْجِـــي

(١) خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث، تأليف: ميشال جحا ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م، دار الميسرة بيروت، ص١٦٣ .

(٢) ديوان الخليل ، نظم خليل مطران ، دار الهلال مصر١٩٤٩م، ج٢، ص١٠ .

الوَعْـــــدُ وَالإِيعَـــــادُ مَـــــا ∴ كَانَـــا لَـــدَيَّ طَرِيـــق فُلْـــجِ (١)

ولم يكتف مطران بذلك فقد استطاع أن يبث ما بداخله من مشاعر ثائرة معبرة عن آلام الشعوب المحتلة ، فيقول . مخاطبا نفسه . (من مجزوء الكامل): (٢)

فِـــــيمَ احْتِبَاسُـــــكَ لِلْقَلَـــــمْ ∴ والأَرْضُ قَـــدْ خُضِـــبَتْ بِـــدَمْ؟

سَـــــدِّدْ قَـــــوِيمَ سِـــــنَانِهِ ∴ فِـــي صَـــدْرِ مَـــنْ لَـــمْ يَسْـــتَقِمْ

نَبِّـــــهْ بِـــــهِ أُمَـــــمَ الـــــزَّوَا ∴ لِ فَعَلَّـــــهُ يُحْيِـــــى الـــــرِّمَمْ

فرغبة مطران وحرصه على تخليص وطنه لبنان من ظلم السلطة التركية تقترب من رغبة المختار وإصراره على حرية وطنه ليبيا، فنفث ما بداخله من مشاعر ساخطة على الاستعمار معبرة عن آلام الشعوب؛ وفي رثائه لعمر المختار" لم يتخذ الحادثة السياسية العابرة بقدر ما كان ينظر إلى مهاجمة الظلم من حيث هو بغيض، والمطالبة بالحرية ليس لشعب أو أمة دون أمة بل لجميع الناس على السواء"(٣)، لذا لم يرث مطران عمر المختار فقط، بل رثى الكثير من الأبطال أمثال: مصطفى كامل، وسعد زغلول، ومحمد فريد وغيرهم؛ بدافع من واجبه نحو وطنه العربي.

ووطنية شوقي كذلك لا تقل عن وطنية مطران، وقد برز ذلك من خلال " تصديه بعنف وإباء للاستعمار الفرنسي والإيطالي والإنجليزي، ودعوته مبكرا للوحدة العربية كونها الدرع الحصين الذي يصون الأمة الإسلامية، وتحفظ

---

(١) وأفلجَ : فاز وهو الفُلْج بالضم : الظفر ، والسهم الفالج : الفائز، انظر: لسان العرب لابن منظور ، مادة:(ف ل ج).

(٢) ديوان الخليل: خليل مطران دار الهلال ، مصر١٩٤٩م، ج ١، ص١٧١.

(٣) خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث: ميشال جحا، ص١٦٦ .

عليها كيانها، ووحدة أراضيها وساكنيها"[١]، وهذه أبيات يتحدث فيها عن نكبة دمشق؛ فيقول:(من بحر الوافر) : [٢]

بَنِـي سُـورِيَّةَ اطَّرَحُـوا الأَمَـانِي ∴ وَأَلْقُـوا عَـنْكُمُ الأَحْـلَامَ أَلْقُـوا

وَقَفْـتُم بَـيْنَ مَـوْتٍ أوْ حَيَـاةٍ ∴ فَـإِنْ رُمْـتُم نَعِـيمَ الـدَّهْرِ فَاشْـقُوا

وَلِلأَوْطَـان فِـي دَمِ كُـلّ حُـرّ ∴ يَـدٌ سَـلَفَتْ وَدَيْـنٌ مُسْـتَحق

وَمَـنْ يَسـقي ويَشْـربُ بِالمَنَايَـا ∴ إذَا الأَحْـرارُ لَـمْ يُسـقُوا ويَسْـقُوا؟

فَفِـي القَتْلَـى لِأَجْيَـالٍ حَيَـاةٌ ∴ وَفِـي الأَسْـرَى فِـدًى لَهُـمُ وَعِتْـقُ

فقد كان حس شوقي الشعري ينداح في أطراف البلاد العربية جمعاء، ويلتزم بالدفاع عن أرض العروبة التي هي موطن الإسلام بالمفهوم الأعم الأوسع، فلا يحرضهم للدفاع عن أرض مصر أو تركيا أو أرض وشعب ليبيا فقط، بل نراه يتعدى ذلك إلى بقاع أخرى في العالم الإسلامي، كبغداد والشام، وينعى على المستعمرين حقدهم وإزهاق الأرواح"[٣]، من هنا يتضح حرص مطران وشوقي الشديد على تحقيق الحرية والعدالة لكل الشعوب العربية؛ لذا كانت أشعارهما أصواتا تنادي بالحرية والاستقلال، وتصرخ في وجه الظلم والاستبداد.

---

(١) النزعة الإسلامية في شعر شوقي، د.عزت فارس، الطبعة الأولى١٤٣١هـ ٢٠١٠م، دار يافا للنشر والتوزيع ، ص٤٨.

(٢) الشوقيات (أمير الشعراء أحمد شوقي) ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ٢٠١٢م ، ج ٢ ، ص٤٥٥ ـ ٤٥٦.

(٣) انظر النزعة الإسلامية في شعر شوقي، د. عزت فارس، ص١٦٧.

الموازنة بين القصيدتين

مفهوم الموازنة قديما وحديثا

الموازنة لغة: وَزَنَ الشَّيْءَ وَزْنًا، والوَزْنُ ثَقْلُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ مِثْلِهِ، وَيقالُ وَزَنَ الشَّيْء إذا قَدَّرَهُ، ووَازَنْتُ بينَ الشَيْئَيْنِ مُوَازَنَةً وَوِزَانًا، وَهَذَا يُوازِنُ هَذا إذَا كَانَ عَلى زِنَتِهِ أوْ كانَ مُحَاذِيه، ووَزَنَ الشَّيْء: رَجَحَ [(١)].

والموازنة اصطلاحا: هي دراسة تهدف إلى الوصول لحكم من خلال المفاضلة والترجيح بين العلوم والفنون والآداب وموضوعاتها وأعلامها وروادها.

والموازنة في الشعر تتحقق بترجيح شاعر على آخر والمفاضلة بينهما في قصيدة أو أبيات أو فكرة، وهي بهذا المعنى البسيط المحدود قد عرفت في العصر الجاهلي، "فقد كان للنابغة الذبياني قبة من جلد في سوق عكاظ، وكان الشعراء ينشدون أشعارهم[(٢)]، ويحكم بينهم، فلديه ملكة تذوق الشعر، ومن ثم قدرة على وزن الكلام وترجيح أفضله.

وقصة أم جندب خير شاهد على رغبة الشعراء أنفسهم في معرفة مكانتهم الشعرية والمفاضلة بينهم، فقد "كان علقمة بن عبدة ينازع امرأ القيس الشعر، فقال كل واحد منهما لصاحبه: أنا أشعر منك، فقال علقمة: قد حكّمت امرأتك أمّ جندب بيني وبينك، فقال: قد رضيت، فقالت أمّ جندب: قولا شعرا تصفان فيه الخيل على رويّ واحد وقافية واحدة، ثم أنشداها جميعا، فقالت لامرئ القيس: علقمة أشعر منك، قال: وكيف ذاك؟ قالت: لأنّك قلت (من بحر الطويل):

فللسّوط ألهوب وللساق درّة ∴ وللزّجر منه وقع أخرج مهذب

فجهدت فرسك بسوطك، ومريته فأتعبته بساقك، وقال علقمة:

---

(١) لسان العرب لابن منظور ، مادة: (وزن).

(٢) انظر: آداب اللغة العربية لجرجي زيدان ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ٢٠١٢م ، ص١٢٦.

فـــأدركهنّ ثانيـــا مـــن عنانـــه ∴ يمـــرّ كمـــرّ الـــرائح المتحلّـــب

فأدرك طريدته وهو ثان من عنان فرسه، لم يضربه بسوط، ولا مراه بساق، ولا زجره، قال: ما هو بأشعر منّى ولكنّك له وامقة؛ فطلّقها فخلف عليها علقمة(١).

فأم جندب متذوقة للشعر لم تستند في حكمها على أسس نقدية، وإنما حكمت بينهما بكل حيادية وموضوعية من خلال إعجابها بالمعنى الدقيق والفكرة الصائبة؛ رغم غضب زوجها امرئ القيس منها، والذي ترتب عليه طلاقها منه، وهذا ما ينبغي أن يتحلى به الأديب الموازن.

وفي عصر صدر الإسلام كانت هناك مفاخرات بين شعراء رسول الله ﷺ وخطبائه وشعراء الوفود وخطبائهم، منها ما قاله الأقرع بن حابس لأصحابه حين سمع الشعر والخطب من الفريقين(٢): "يا هؤلاء، ما أدري ما هذا؟! قد تكلم خطيبهم فكان خطيبهم أحسن قولا وأعلى صوتا، وتكلم شاعرهم فكان شاعرهم أحسن قولا وأعلى صوتا(٣)، فمقولة مثل ذلك تصدر من رجل من الوافدين؛ تدل على مدى إنصافه لخصومه، وتحكيمه لذوقه وعقله.

وفي العصر الأموي كثرت الموازنات الأدبية؛ لما عرف به من ظهور بعض القضايا النقدية والاختلاف حولها، وظهور شعر النقائض وما يصحبها من تعصب، ورغبة الناس في معرفة أفضلية بعض الشعراء على بعض كاختلافهم في الموازنة بين الشاعرين جرير والفرزدق؟.

---

(١) انظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤٢٣هـ، جـ١، ص٢١٢ ـ ٢١٣.

(٢) انظر: ما دار بين الفريقين من مفاخرات في كتاب مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق : روحية النحاس ، رياض عبد الحميد مراد ، محمد مطيع ، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٤م، دار الفكر ، دمشق . سوريا، جـ٥ ، ص١٤ ـ ١٦.

(٣) مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، وآخرون، جـ٥، ص١٦.

وقال ابن خلكان: كَانَ جَرِيرٌ أَشْعَرَ مِنَ الْفَرَزْدَقِ عِنْدَ الْجُمْهُورِ، وَأَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَهُ جَرِيرٌ(من بحر الوافر): [1]

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ ∴ حَسِبْتَ النَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وفي العصر العباسي ألفت الكثير من الكتب التي تحدثت عن الموازنة بين الشعراء، وألف الآمدي كتابا ـ بين فيه مقومات الموازنة الصائبة ـ بعنوان "الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري"، وهو كتاب عقد للموازنة بين شاعرين في العصر العباسي؛ لمعرفة مواطن الحسن والمساوئ عند كل منهما في المعاني والألفاظ الأساليب وغيرها، تاركا الحكم للقارئ.

أما في العصر الحديث فقد زاد الاهتمام بالموازنة، وأقبل على دراستها العديد من النقاد، ووضعوا لها القواعد والأسس والشروط التي لا بد من توافرها؛ فأصبحت دقيقة معللة، واستندت على أسس علمية، واتسمت بالحيادية والموضوعية.

ومن الذين اهتموا بالموازنة وكتبوا عنها من النقاد المحدثين " زكي مبارك"، فقال في تعريفها: " هي ضرب من ضروب النقد يتميز بها الرديء من الجيد، وتظهر بها وجوه القوة والضعف في أساليب البيان[2]، فهي "نوع من النقد ، وهي كذلك نوع من الوصف، فالذي يوازن بين شاعرين إنما يصف ما لكل منهما وما عليه بأدق ما يمكن من التحديد، فمن واجب الناقد إذًا أن يتعمق في دراسة حياة الشاعر الذي يضع شعره في الميزان، وأن يجتهد في أن يرى الأشياء بعينه، ويدركها بشعوره؛ ليستطيع وزن ما يقول "[3] .

لذا تحدثت في التمهيد عن ظروف وملابسات إعدام البطل عمر المختار، وعن أثر ذلك الموقف في مطران وشوقي قبل الموازنة بين القصيدتين.

---

(١) البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ت ٧٧٤هـ ، دار الفكر(١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م) ، جـ٩ ، ٢٦٤.

(٢) الموازنة بين الشعراء (أبحاث في أصول النقد وأسرار البيان)، تأليف: زكي مبارك، الطبعة الأولى، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر، ص١.

(٣) المرجع السابق ، ص ١٧.

المبحث الأول

رثاء مطران لعمر المختار

قصيدة مطران [1] من البسيط:

أَبَيْتَ والسَّيْفُ يَغْلُو الرَّأْسَ تَسْلِيمَا ∴ وَجُدْتَ بالرُّوحِ جُودَ الحُرِّ إِنْ ضِيمَا

تَذكرُ العُرْبَ وَالأَحْدَاثُ مُنْسِيَةٌ ∴ مَا كَانَ، إِذْ مَلَكُوا الدُّنْيَا لَهُمْ خِيمَا

للهِ يَا "عُمَرُ المُخْتَارُ" حِكْمَتُهُ ∴ فِي أَنْ تُلَاقِيَ مَا لَاقَيْتَ مَظْلُومَا

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَمَا إِنْ عَجَّلُوا أَجَلًا ∴ قَدْ كَانَ مُذْ كُنْتَ مَقْدُورًا وَمَحْتُومَا

هَلْ يَمْلِكُ الحَيُّ، لَوْ دَانَتْ لَهُ أُمَمٌ ∴ لِأَمْرِ رَبِّكَ تَأْخِيرًا وَتَقْدِيمَا ؟

لَكِنَّهَا عِظَةٌ لِلشَّرْقِ أَوْسَعَهَا ∴ مُصَابُهُ بِكَ فِي الأَخْلَادِ تَجْسِيمَا

لَعَلَّهُ مُسْتَفِيقٌ بَعْدَ ضَجْعَتِهِ ∴ أَوْ مُسْتَقِيلٌ مِنَ الخَسْفِ الَّذِي سِيمَا

أَجْدِرْ بِرُزْئِكَ لَمْ تَحْذَرْ عَوَاقِبَهُ ∴ أَنْ يَفْجَعَ العُرْبَ تَخْصِيصًا وَتَعْمِيمَا

وَأَنْ يُؤَجِّجَ نَارًا مِنْ حَمِيَّتِهِمْ ∴ وَأَنْ يَرُدَّ فِرِنْدَ الصَّبْرِ مَثْلُومَا

هَيْهَاتَ نُوفِيكَ وَالأَقْوَالُ عُدَّتُنَا ∴ حَقًّا، وَنُوفِي الصَّنَادِيدَ المَقَاحِيمَا

مِنَ الأُولَى صَبَرُوا الصَّبْرَ الجَمِيلَ وَقَدْ ∴ ذَاقُوا الكَرِيهَيْنِ تَقْتِيلًا وَتَكْلِيمَا

وَعَلَّ أَشْقَاهُمُ البَاقِي عَلَى كَمَدٍ ∴ وَعَلَّ أَرْوَحَهُمْ مَنْ قَرَّ مَرْحُومَا

قَدْ آثَمُوكُمْ، وَكَمْ مِنْ مُثْلَةٍ نَزَلَتْ ∴ بِالأَبْرِيَاءِ وَبِالأَبْرَارِ تَأْثِيمَا

وَإِنَّمَا ذَنْبُكُمْ ذَنْبُ الأُولَى جَعَلُوا ∴ صِدْقَ الهَوَى لِلحِمَى دِينًا وَتَعْلِيمَا

امْضُوا رِفَاقًا كِرَامًا حَسْبُكُمُ عِوَضًا ∴ فَخْرٌ عَزِيزٌ عَلَى الخُطَّابِ إِنْ رِيمَا

قَدْ سِرْتُمُ فِي سَبِيلِ الخَيْرِ سِيرَتَكُمْ ∴ مُحَقِّقِينَ رَجَاءً خِيلَ مَوْهُومَا

لَا حَاكِمًا دُونَ مَا أَوْحَتْ ضَمَائِرُكُمْ ∴ تُرَاقِبُونَ وَلَا تَرْعَوْنَ مَحْكُومَا

---

(١) ديوان الخليل: خليل مطران، طبعة جديدة كاملة تحوي كل شعر الناظم مبوبة على حروف الهجاء، دار مارون عبود ، بيروت، ج ٣، ص٨ ـ ١١.

يُحَطِّـمُ[1] العَظْـمُ مِـنْكُمُ دُونَ بُغْيَـتِكُمْ ... فَمَـا تَهُـونُ، وَيَـأْبَى العَـزْمُ تَحْطِيمَـا
لَـيْسَ الإِرَادَةُ إِلَّا مَـنْ يَكُـونُ عَلَـى ... رَأْيٍ وَمَـنْ يَتَنَـاهَى فِيـهِ تَصْـمِيَما
مَا السِّجْنُ حِينَ يُذَادُ الخَسْفُ عَنْ وَطَنٍ ... بِعَـارِهِ بَـاءَ فِـي الأَوْطَـانِ مَوْصُـومَا ؟
يُغْنِـي مِنَ الشَّمْسِ فِي أَعْمَاقِ ظُلْمَتِـهِ ... بَـرْقٌ مِـنَ الأَمَـلِ المَوْمُـوقِ إِنْ شِـيمَا
عَـدْنٌ" عَلَـى طِيبِهَـا لَـوْ شِـيبَ كَوْثَرُهَـا ... بِظِـلِّ بَـاغٍ لَعَـادَ الـوَرْدُ مَسْـمُومَا
مَـا المَـوْتُ إِنْ تَـكُ مَنْجَـاةُ الـبِلَادِ بِـهِ ... مِنْ غَاصِبٍ وَانْتِصَافُ الشَّعْبِ مَهْضُومَا
هَـذَا هُـوَ العَـيْشُ وَالقِسْـطُ العَظِـيمُ بِـهِ ... مِـنْ خَالِـدِ الفَخْـرِ فَـوْقَ العُمْـرِ تَقْوِيمَـا
إِنَّ الفِـدَاءَ لَأَغْلَـى مَـا حَمِـدت لَـهُ ... أُخْـرَى وَإِنْ كَـانَ فِـي أُولَاهُ مَـذْمُومَا
وَمَـا اعْتِـدَالُ زَمَـانٍ لَا يُقَوِّمُـهُ ... بَنُـوهُ بِالصَّـبْرِ وَالإِقْـدَامِ تَقْوِيمَـا
كَـمْ كُبِّـلَ الحَـقُّ بِالأَصْـفَادِ مِـنْ قِـدَمٍ ... فَلَـمْ تَضِـرْهُ، وَرُدَّ البُطْـلُ مَهْزُومَـا؟
وَسَـامَ صَـبْرًا إِلَـى أَنْ فَـازَ مُقْـتَحِمٌ ... يَفُـكُّ شَـعْبًا مِـنَ الضَّـيْمِ الَّـذِي سِـيمَا
يَـا سَـادَةً أَطْلَعَـتْ "مِصْـرُ" بِهِـمْ شُـهُبًا ... وَاللَّيْـلُ خَـيَّمَ بِالأَحْـدَاثِ تَخْيِيمَـا
فَمَـا وَنَـوْا لِلحِمَـى عَـنْ وَاجِـبٍ وَبَنَـوْا ... لِلمَجْـدِ فِيـهِ طِرَافًـا كَـانَ مَهْـدُومَا
أَعِـزَّةٌ إِنْ بَـدَا مِـنْ فَضْـلِهِمْ أَثَـرٌ ... فَكَـمْ لَهُـمْ مِـنْ جَمِيـلٍ ظَـلَّ مَكْتُومَـا ؟
وَلِلفِـدَى كَالنَّـدَى حَـالٌ مُنَزَّهَـةٌ ... فِـي حُكْمِهَـا يَـنْفُسُ المَجْهُـولُ مَعْلُومَـا
شَـارَكْتُمُ الجَـارَ فِـي خَطْـبٍ أَلَـمَّ بِـهِ ... وَمَـا ادَّخَـرْتُمْ لِشَـيْخِ العُـرْبِ تَكْرِيمَـا
كَـذَا تُكَـافِئُ "مِصْـرُ" العَـامِلِينَ بِمَـا ... يَعْـدُو الأَمَـانِيَّ تَمْجِيـدًا وَتَعْظِيمَـا
أَكْـرِمْ بِهَـا وَهْـيَ تَحْنُـو الـرَّأْسَ هَاتِفَـةً : ... تَحِيَّـةً أَيُّهَـا القَتْلَـى وَتَسْـلِيمَا

التحليل

أَبَيْتَ والسَّيْفُ يَعْلُو الرَّأْسَ تَسْلِيمَا ∴ وَجُـدْتَ بـالرُّوحِ جُـودَ الحُـرِّ إِنْ ضِـيمَا

(١) (يُحَطِّـمُ) بالكسـر مبنيـا للمعلـوم كمـا ورد فـي الـديوان، وأرى أن هـذا خطـأ مطبعيـا، والصحيح (يُحَطَّمُ) بالفتح مبنيا للمجهول، يؤيد هذا الرأي سياق الأبيات واستقامة حركة نائب الفاعل بالرفع (العظم).

فهنا يخاطب مطران البطل عمر المختار قائلا: لقد رفضت أن تستسلم للطليان، أو تقبل بمساومتهم، حتى في أشد المواقف التي ينهار فيها الأقوياء، لحظة اقتراب الإعدام، وبذلت روحك بشجاعة وثبات كما يجود الحر بروحه فداء، ويضحي بها وتهون عليه؛ إذا خير بين الحياة مع الأعداء في ذل أو الموت بكرامة في وطنه.

تَـذكرُ العُـرْبَ وَالأَحْـدَاثُ مُنْسِـيَةٌ ∴ مَـا كَـانَ، إِذْ مَلكُوا الدُّنْيَا لَهُمْ خِيمَـا[1]

إن العرب يذكرون مآسي الطليان المستعمرين ويعرفون جيدا طبعهم، على الرغم من مرور كثير من الأحداث التي ربما تنسي سابقتها، فطبعهم الإيذاء والتجبر والعنف والقسوة والمكر والخداع، فإذا احتلوا بلدا وسيطروا عليها أذلوها وسفكوا دماء أهلها.

للهِ يَـا "عُمَـرُ المُخْتَـارُ" حِكْمَتُـهُ ∴ فِـي أَنْ تُلَاقِـيَ مَـا لَاقَيْـتَ مَظْلُومَـا

إِنْ يَقْتُلُـوكَ فَمَـا إِنْ عَجَّلُـوا أَجَـلًا ∴ قَـدْ كَـانَ مُـذْ كُنْـتَ مَقْـدُورًا وَمَحْتُومَـا

هَلْ يَمْلِكُ الحَيُّ، لَوْ دَانَتْ لَـهُ أُمَمٌ، ∴ لِأَمْـرِ رَبِّـكَ تَـأْخِيرًا وَتَقْـدِيمَا ؟

وما زال الشاعر يخاطب عمر المختار، ويقسم بالله قائلا له: إن الظلم الذي وقع عليك وبسببه أعدمت ظلما؛ كان لحكمة من الله ﷻ، فقتلك على أيدي الطليان ليس تعجيلا لأجلك، فأجل الإنسان مقدر ومكتوب، فالإنسان لا يملك من أمره شيئا وإن ملك الدنيا بأسرها، فإذا حانت وفاته لا يستطيع أن يقدمها أو يؤخرها أحد.

لَكِنَّهَـا عِظَـةٌ لِلشَّـرْقِ أَوْسَـعَهَا ∴ مُصَـابُهُ بِـكَ فِـي الأَخْـلَادِ تَجْسِـيمَا

لَعَلَّـهُ مُسْـتَفِيقٌ بَعْـدَ ضَـجْعَتِهِ ∴ أَوْ مُسْتَقِيلٌ مِنَ الخَسْفِ الَّذِي سِيمَا

في هذين البيتين يذكر الشاعر الحكمة من إعدام المختار، فمصابه جعله مخلدا في قلوب العرب، فقد كان نموذجا للمسلم العربي الشجاع جديرا بأن

---

(١) خيما: الخِيَم الشيمة والطبيعة والخلق والسجية، ويقال: خِيمُ السيفِ فِرِنْدُهُ جرابه، لسان العرب: مادة:(خ ي م).

يحتذي، وليأخذوا من قصة كفاحه العبرة والعظة والجهاد في سبيل الوطن، لعل العرب يستفيقوا من سباتهم العميق ، ويتخلوا عن الذل الذي أصبح شيمة لهم .

أَجْـدِرْ بِرُزْئِـكَ لَـمْ تَحْـذَرْ عَوَاقِبَـهُ ∴ أَنْ يَفْجَـعَ العُـرْبَ تَخْصِيصًـا وَتَعْمِيمَـا

وَأَنْ يُـوَجِّجَ نَـارًا مِـنْ حَمِيَّـتِهِمْ ∴ وَأَنْ يَـرُدَّ فِرِنْـد[١] الصَّـبْرِ مَثْلُومَـا

يخاطب الشاعر عمر المختار قائلا له : إن مصيبة استشهادك جديرة بأن تفجع العرب عموما وتهز كيانهم، فقد كان لها عواقب وخيمة؛ ولكنها انعكست إيجابا عليهم، حيث أشعلت النار في قلوبهم، وجعلت صبرهم ينفد على الاحتلال الغاشم؛ مما أثار في نفوسهم حمية الدفاع عن أوطانهم.

هَيْهَـاتَ نُوفِيـكَ وَالأَقْـوَالُ عُـدَّتُنَا ∴ حَقًا، وَنُوفِي الصَّنَادِيدَ [٢] المَقَاحِيمَا[٣]

مِنَ الأُولَى صَبَرُوا الصَّبْرَ الجَمِيلَ وَقَدْ ∴ ذَاقُـوا الكَـرِيهَيْنِ تَقْتِـيلًا وَتَكْلِيمَـا[٤]

وما زال يخاطب عمر المختار قائلا : إنه من الصعب أن نوفيك حقك أيها البطل المغوار، ولا نوفي الأبطال الشجعان الذين لا يعرفون الخوف ولا يتسرب إلى نفوسهم الذل والهوان، والذين تحملوا الشدائد والموت في سبيل الوطن .

وَعَـلَّ[٥] أَشْـقَاهُمُ البَّـاقِي عَلَـى كَمَـدٍ ∴ وَعَـلَّ أَرْوَحَهُـمْ مَـنْ قَـرَّ[٦] مَرْحُومَـا

إن هذا الاحتلال الطلياني الغاشم قد جعل الشعب الليبي يذوق الحنظل ، ويعيش في كمد سواء من بقي منهم على قيد الحياة، ومن قتل على أيديهم فهؤلاء قد أصابهم ريح طيبة باردة رحمة من الله ﷻ.

---

(١) فرند: السيف ،واستل فرنده : سيفه، لسان العرب: مادة: (ف رد).

(٢) الصناديد: جمع صنديد، والصنديد: الشديد الشريف الشجاع، لسان العرب: مادة: (ص ن د).

(٣) المقاحيم: جمع مقحام، وهو الذي يخوض الشدائد، لسان العرب: مادة: (ق ح م).

(٤) تكليما: كلمه يكلمه كلما ، وكلمه كلما : جرحه، لسان العرب: مادة: (ك ل م).

(٥) عل: أعله الحزن عله : أمرضه وأصابه بعلة، لسان العرب: مادة: (ع ل ل).

(٦) قر: القر البرد في الشتاء والصيف، يقال: يوم ذو قر أي ذو برد، لسان العرب مادة:(ق ر ر).

قَـدْ آثمُـوكُمْ، وَكَـمْ مِـنْ مُثْلَـةٍ نَزَلَـتْ ∴ بِالأَبْرِيَـــاءِ وَبِـــالأَبْرَارِ تَأْثِيمَـــا

وإِنَّمَـا ذَنْـبُكُمْ ذَنْـبُ الأُولَـى جَعَلُـوا ∴ صِـدْقَ الهَـوَى لِلحِمَـى دِينًـا وَتَعْلِيمَـا

لقد ارتكب الإيطاليون بكم الخطايا والآثام، وكم من ظلم نزل بالأبرياء الذين لم يرتكبوا خطأً، وإنما ذنبكم أيها الساكتون عن الحق أنكم رضيتم بهذا الذل، واتبعتم الأكاذيب الواهية من الأعداء الذين أرادوا الخسف بكم .

امْضُـوا رِفَاقًـا كِرَامًـا حَسْـبُكُمُ عِوَضًـا ∴ فَخْرٌ عَزِيزٌ عَلَى الخُطَّابِ إِنْ رِيمَا[1]

قَـدْ سِـرْتُمُ فِـي سَـبِيلِ الخَيْـرِ سِـيرَتَكُمْ ∴ مُحَقِّقِـــينَ رَجَـــاءً خِيـــلَ مَوْهُومَـــا

ثم يمضي في خطابه للشعب الليبي قائلا لهم: امضوا في عزة وكرامة وحسبكم عوضا عن الشهيد الفخر والعز على المتلقين إن طلب منكم الفخر في يوم من الأيام؛ حيث سرتم في سبيل الخير والحق محققين رجاء للأمة كان بعيد المنال.

لَا حَاكِمًـا دُونَ مَـا أَوْحَـتْ ضَـمَائِرُكُمْ ∴ تُرَاقِبُـــونَ وَلَا تَرْعَـــوْنَ مَحْكُومَـــا

يُحَطِّـــمُ العَظْـــمُ مِـــنْكُمُ دُونَ بُغْيَـــتِكُمْ ∴ فَمَـا تَهُـونُ، وَيَـأْبَى العَـزْمُ تَحْطِيمَـا

يذكر الشاعر الخطوة الأولى في طريق الحرية، وهي أن يكون الحاكم قد جاء باختيار ورغبة الشعب، فإن كان كذلك فلن يبطش ويتجبر على الرعية، ولا تخاف الرعية منه، بل تتعاون معه لما فيه صلاح البلاد.

لَـــيْسَ الإِرَادَةُ إِلَّا مَـــنْ يَكُـــونُ عَلَـــى ∴ رَأْيٍ وَمَـــنْ يَتَنَـــاهَى فِيـــهِ تَصْـــمِيَما

مَا السِّجْنُ حِينَ يُذَادُ الخَسْفُ عَنْ وَطَنٍ ∴ بِعَـارِهِ بَـاءَ فِـي الأَوْطَـانِ مَوْصُـومَا ؟

يُغْنِـي مِـنَ الشَّـمْسِ فِـي أَعْمَـاقِ ظُلْمَتِـهِ ∴ بَرْقٌ مِنَ الأَمَلِ المَوْمُوقِ إِنْ شِيمَا[2]

إنما تتحقق الإرادة حينما يكون هناك رأي واحد قوي سديد، وتصميم ورغبة قوية من الشعب في تحقيق الحرية، فالحرية ثمنها غال، والوطن الذي يسلب

---

(١) ريما : رام هدفا : نشده وطلبه، والمرام : المطلب، لسان العرب: مادة: (ر ا م).

(٢) شيما: شام السحاب والبرق شيما: نظر إليه أين يقصد ويمطر، لسان العرب: مادة: (ش ام).

منه الحرية يصبح سجنا ويلحقه الذل والهوان بين الأوطان، ولكن وسط هذا السجن المظلم يبقى هناك بارقة أمل يتطلع إليها الشعب، فربما يحقق لهم الخلاص من المستعمرين.

"عَدْنٌ" عَلَى طِيبِهَا لَوْ شِيبَ كَوْثَرُهَا ∴ بِظِلِّ بَاغٍ لَعَادَ الوَرْدُ مَسْمُومَا

في هذا البيت تجد الشاعر يشير إلى أن جنة عدن؛ لو اختلط كوثرها بظل ظالم لأصبح الورد سما قاتلا.

مَا المَوْتُ إِنْ تَكُ مَنْجَاةُ البِلَادِ بِهِ ∴ مِنْ غَاصِبٍ وَانْتِصَافُ الشَّعْبِ مَهْضُومَا

هَذَا هُوَ العَيْشُ وَالقِسْطُ[1] العَظِيمُ بِهِ ∴ مِنْ خَالِدِ الفَخْرِ فَوْقَ العُمْرِ تَقْوِيمَا

إن النصيب الأوفر، الذي يتمناه كل مناضل حتى ينال الخلود والبقاء هو الموت في سبيل الحرية، ونجاة البلاد من طغيان الاحتلال، ورجوع حقوق الشعب الضائعة، لذا قال:

إِنَّ الفِدَاءَ لَأَغْلَى مَا حَمِدْتَ لَهُ ∴ أُخْرَى وَإِنْ كَانَ فِي أُولَاهُ مَذْمُومَا

إن التضحية بالنفس في سبيل الوطن عاقبتها محمودة، وإن كان أولها مذمومة ومكروهة.

وَمَا اعْتِدَالُ زَمَانٍ لَا يُقَوِّمُهُ ∴ بَنُوهُ بِالصَّبْرِ وَالإِقْدَامِ تَقْوِيمَا

كَمْ كُبِّلَ [2] الحَقُّ بِالأَصْفَادِ مِنْ قِدَمٍ ∴ فَلَمْ تَضِرْهُ، وَرُدَّ البُطْلُ مَهْزُومَا؟

وَسَامَ صَبْرًا إِلَى أَنْ فَازَ مُقْتَحِمٌ ∴ يَفُكُّ شَعْبًا مِنَ الضَّيْمِ الَّذِي سِيمَا

إن أبناء الشعب عليهم بالالتزام بالصبر والتمسك بالحق إذا أرادوا أن يعيشوا أحرارا.

يَا سَادَةً أَطْلَعَتْ "مِصْرٌ" بِهِمْ شُهُبًا ∴ وَاللَّيْلُ خَيَّمَ بِالأَحْدَاثِ تَخْيِيمَا

فَمَا وَنَوْا لِلحِمَى عَنْ وَاجِبٍ وَبَنَوْا ∴ لِلمَجْدِ فِيهِ طِرافًا[3] كَانَ مَهْدُومَا

---

(١) القسط : الحصة والنصيب ، لسان العرب: مادة: (ق س ط).

(٢) كبل : قيد ، والكَبْلُ : قيدٌ ضخم، لسان العرب: مادة: (ك ب ل).

(٣) طرافا : الطراف بيت من أدم ليس له كفاء من بيوت الأعراب، لسان العرب: مادة: (ط رف).

ثم ينتقل الشاعر من رثاء عمر المختار إلى مدح مصر لما عرفت به من الجهاد ومقاومة المستعمر، ومن ثم على الليبيين أن يقتدوا بأبطال مصر حتى يحرروا بلادهم من الطليان.

أَعِــزَّةٌ إِنْ بَــدَا مِــنْ فَضْــلِهِمْ أَثَــرٌ ∴ فَكَمْ لَهُمْ مِنْ جَمِيلٍ ظَلَّ مَكْتُومَا؟

وَلِلفِــدَى كَالنَّــدَى حَــالٌ مُنَزَّهَــةٌ ∴ فِي حُكْمِهَا يَنْفُسُ المَجْهُولُ مَعْلُومَا

ويخاطب المصرين قائلا: كم لكم من أياد على الدول العربية إلا أن هناك من ينكر هذه النعم، فالمصريون معروفون بمساعدة إخوانهم العرب، وإن جهل بعضهم ذلك، فقال:

شَـارَكْتُمُ الجَـارَ فِـي خَطْـبٍ أَلَـمَّ بِـهِ ∴ وَمَـا ادَّخَـرْتُمْ لِشَـيْخِ العُرْبِ تَكْرِيمَـا

كَـذَا تُكَـافِئُ "مِصْـرُ" العَـامِلِينَ بِمَـا ∴ يَعْـدُو الأَمَـانِيَّ تَمْجِيـدًا وَتَعْظِيمَـا

أَكْرِمْ بِهَا وَهْيَ تَحْنُـو الرَّأْسَ هَاتِفَـةً : ∴ تَحِيَّــةً أَيُّهَــا القَتْلَــى وَتَسْــلِيمَا

يواصل الشاعر ثناءه على مصر، فقد شاركت الدول العربية المحتلة آلامها ومصابها، حتى نالت كرامتها وعزها ، ولم تنس مصر تكريم الأبطال الصناديد مثل شيخ العرب عمر المختار، وهكذا مصر تكافئ الأبطال المجاهدين الذين لم يرضوا بالذل والهوان، تكرمهم وتحني لهم الرأس هاتفة: (تَحِيَّةً أَيُّهَا القَتْلَى وَتَسْلِيمَا).

المبحث الثاني

رثاء شوقي لعمر المختار

عرفنا رثاء مطران للزعيم العربي عمر المختار، ورفع منزلته إلى منزلة الشهداء الذين يتغمدهم الله برحمته ويدخلهم جناته مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا .

والآن نعيش مع الشاعر أحمد شوقي في رثائه للبطل؛ الذي نال شرف الاستشهاد في سبيل الله والوطن ، فيقول . من الكامل . :[1]

رَكَـزُوا رُفَاتَـكَ فِـي الرِّمَـالِ لِـواءَ ∴ يَسْـتَنْهِضُ الـوَادِي صَـبَاحَ مَسَـاءَ
يَـا وَيْحَهُـم! نَصَـبُوا مَنَـارًا مِـنْ دَمٍ ∴ تُـوحِي إِلَـى جِيـلِ الغَـدِ البَغْضَـاءَ
مَا ضَرَّ لَـوْ جَعلوا العلاقةَ فِي غَدٍ ∴ بـينَ الشـعوبِ مَـوَدَّةً وإِخَـاءَ ؟
جُـرْحٌ يَصِيحُ علـى المَـدَى وَضَـحِيَّةٌ ∴ تَـتَلَمَّسُ الحُرِيَّـةَ الحَمْـرَاءَ
يَـا أَيُّهـا السـيْفُ المُجَـرَّدُ بِـالفَلا ∴ يَكْسُو السيوفَ عَلى الزمانِ مَضَاءَ
تِلْـكَ الصَـحَارِي غِمْـدُ كُـلِّ مُهَنَّـدٍ ∴ أَبْلَـى فَأَحْسَـنَ فِـي العـدوِّ بَـلاءَ
وقُبـورُ مَـوْتَى مِـنْ شَـبَابٍ أُمَيَّـةٍ ∴ وَكهـولِهم لَـمْ يَبْرَحُـوا أَحْيَـاءَ
لَـوْ لاذَ بـالجوزاءِ مـنهُم معقِـلٌ ∴ دَخَلُـوا عَلَـى أَبْراجِهَـا الجَـوْزاءَ
فَتَحُـوا الشَّـمالَ: سُـهولَهُ وجِبالَـهُ ∴ وَتَوغَّلُـوا، فَاسْـتعمروا الخَضـراءَ
وَبنَـوْا حضَـارتَهم، فطَـاوَلَ ركنُهـا ∴ (دَارَ السـلامِ) و(جِلَّـقَ) الشَّـمَاءَ
خُيِّرتَ فاخْتَرْتَ المبيتَ على الطَّوَى ∴ لـم تَـبْنِ جاهًـا، أوْ تَلُّـمَ ثَـراءَ
إنَّ البطولـةَ أنْ تمـوتَ مـن الظَّمـا ∴ لـيسَ البطولـةُ أنْ تَغُـبَّ المـاءَ
إفريقيـا مَهْـدُ الأُسـودِ وَلَحْـدُها ∴ ضَـجَّتْ عليـكَ أَراجِـلًا ونِسـاءَ
والمسـلمون علـى اخـتلافِ ديـارِهم لا يملِكـون مـعَ المُصَـابِ عَـزاءَ
والجاهليـةُ مـن وراءِ قُبُـورِهم يبكـون زَيْـدَ الخيـلِ والفَلْحـاءَ

(١) الشوقيات (أمير الشعراء أحمد شوقي) ، جـ ٣ ، ص٦٠١ ـ ٦٠٢.

فِـــي ذِمَّـــةِ اللهِ الكـــريمِ وحفظِـــه ... جسَـــدٌ (ببرقـــة) وُسِّـــد الصـــحراءَ
لـمْ تُبْـقِ منـهُ رَحَـى الوقـائعِ أَعْظُمًـا ... تَبْلَـى، ولـمْ يُبْـقِ الرِّمـاحُ دِمَـاءَ
كَرُفـــاتِ نَسْـــرٍ أو بَقِيَّـــةِ ضَـــيْغَمٍ ... باتـــا وراءَ السَّـــافِياتِ هَبـــاءَ
بَطـلُ البَـداوةِ لـمْ يكـنْ يَغْـزُو علـى ... تَنْـكٍ" ولـمْ يَـكُ يركـبُ الأَجـواءَ
لكـنْ أَخُـو خَيْـلٍ حَمَـى صَـهَوَاتِها ... وأَدَارَ مـــن أَعرافِهـــا الهَيْجـــاءَ
لَبَّـى قضـاءَ الأرضِ أَمـسِ بمُهْجَـةٍ ... لـــمْ تَخْـــشَ إلَّا للسَّـــماءِ قَضـــاءَ
وافـــاهُ مَرْفُـــوعَ الجبـــينِ كأَنَّـــهُ ... سُـــقْراطُ جَـــرَّ إلـــى القُضـــاةِ رِداءَ
شَـــيْخٌ تمالَـــكَ سِـــنَّهُ لـــمْ ينفجـــرْ ... كالطفـلِ مـن خـوفِ العقـابِ بُكـاءَ
وأَخُـو أُمـورٍ عـاشَ فـي سَـرَّائِها ... فتغيَّـــرَتْ، فتوقَّـــعَ الضـــرَّاءَ
الأُسْـدُ تـزأَرُ فـي الحديـدِ ولـن تَـرى ... فِـي السِّـجنِ ضِـرْغامًا بَكـى استِخْذاءَ
وأتَـى الأَسـيرُ يَجُـرُّ ثِقْـل حديـدِهِ ... أَسَـــدٌ يُجَـــرِّرُ حَيَّـــةً رَقْطَـــاءَ
عَضَّـتْ بِسـاقَيْهِ القُيـودُ فلـمْ يَئُـؤْ ... ومَشَـتْ بهَيْكلـه السـنون فنـاءَ
تِسْـعُونَ لـو رَكِبَـتْ مناكِـبَ شـاهقٍ ... لتَرجَّلَـــتْ هَضَـــباتُه إعيـــاءَ
خَفِيَتْ عن القاضي، وفاتَ نَصِيبُها ... مـــن رِفْـــقِ جُنْـــدٍ قـــادةٍ نُـــبلاءَ
والسِّـنُّ تَعْصِـفُ كُـلَّ قَلْـبٍ مُهَـذَّبٍ ... عَـــرَفَ الجُـــدودَ وأَدركَ الآبـــاءَ
دَفعُـوا إلـى الجـلَّادِ أَغْلَـبَ ماجـدٍ ... يأسُـو الجِـراحَ وَيُطلِـقُ الأُسَـراءَ
ويُشـاطِرُ الأَقـرانَ ذُخْـرَ سِـلاحِهِ ... وَيَصُـفُّ حَـوْلَ خِوانِـه الأَعـداءَ
وتخيُّـروا الحبـلَ المَهِـينَ مَنيَّـةً ... للَّيْـثِ يلفِـظ حوْلَـهُ الحَوْبـاءَ
حَرمـوا الممـاتَ علـى الصَّوارِمِ والقَنـا ... مـنْ كـانَ يُعْطِـي الطَّعْنَـةَ النَّجْلاءَ
إنـي رأيـتُ يَـدَ الحضـارةِ أُولِعَـتْ ... بـــالحقِّ هـــدْمًا تـــارةً وبِنـــاءَ
شَـرَعَتْ حُقـوقَ النـاسِ فـي أوطـانِهم ... إلَّا أُبـــاةَ الضَّـــيْمِ والضُّـــعَفاءَ
يَـا أيُّهـا الشـعبُ القريـبُ، أسـامعٌ ... فأَصـوغُ فـي عُمَـرِ الشَّـهيدِ رثـاءَ
أمْ أَلْجَمَـتْ فـاكَ الخطـوبُ وحَرَّمـت ... أُذنَيْـكَ حـينَ تُخاطَـبُ الإصْـغاءَ؟
ذهـبَ الـزعيمُ وأنـتَ بـاقٍ خالـدٌ ... فانقُـد رِجالَـك واخْتَـرِ الزُّعَمـاءَ
وأَرِحْ شـيوخَكَ مـن تكـالِيفِ الـوَغَى ... واحْمِـلْ عَلـى فِتْيانِـكَ الأعْبـاءَ

التحليل

لقد "رثى شوقي كثيرا من العظماء، ورثاؤه يربو على مديحه ، لأنه قصر المديح على الأمراء والخلفاء والزعماء، أما رثاؤه فقد شمل عددا كبيرا من رجال العروبة والإسلام والوطنية والإصلاح من مختلف الطبقات، وقد رد على منتقديه الذين عابوا عليه إسرافه في كثرة مراثيه"[١] بقوله (من بحر الطويل):[٢]

يَقُولُون: يَرثِي الراحلينَ فَوَيْحَهُم! ∴ أَأَمَلْتُ عندَ الراحلينَ الجَوازيا؟

وقوله (من بحر الطويل): [٣]

يَقُولُون : يَرثِي كُلَّ خِلٍ وصاحبٍ ∴ أَجَل إنما أَقضي حقوقَ صِحابي

ومن هؤلاء الزعماء الذين رثاهم شوقي؛ عمر المختار حيث قال في رثائه:من الكامل

رَكَزُوا[٤] رُفَاتَكَ[٥] فِي الرِّمَالِ لِواءَ ∴ يَسْتَنْهِضُ الوَادِي صَبَاحَ مَسَاءَ

بدأ الشاعر قصيدته بمخاطبة عمر المختار ـ الذي أعدمه الطليان ـ فذكر أن الطليان غرسوا عظامه في الرمال، وتخلصوا منه ومن مقاومته لهم ، ولكن فعلهم المشين هذا جعل الشعب ينهض في كل وقت وحين؛ للدفاع عن وطنه ليبيا؛ لينال حريته وكرامته حتى بعد مماته.

يَا وَيْحَهُم! نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ ∴ تُوحِي إِلَى جِيلِ الغَدِ البَغْضَاءَ

---

(١) مدارس الشعر العربي في العصر الحديث ، تأليف: د. صلاح الدين محمد عبد التواب، دار الكتاب الحديث ، ص٧٨.

(٢) الشوقيات ، رثاء إسماعيل أباظة باشا ، جـ ٣ ، ص٧٩٥.

(٣) الشوقيات، رثاء يعقوب صرُّوف ، جـ ٣ ، ص٦١٦.

(٤) ركز يركزه ركزا ، وركزه : غرسه في الأرض، والركز : غرزك شيئا منتصبا كالرمح، لسان العرب: مادة: (ر ك ز).

(٥) رفاتك ، والرفات: الحطام من كل شيء تكسر، ورفت العظم يرفت رفتا صار رفاتا، لسان العرب: مادة: (رف ت).

يـا قـبح طغيـان الطليـان وجبـروتهم ، فبإعـدامهم لرمـز الأمـة وظلمهـم لـه وللشعب الليبي، أثاروا الحقد والبغضاء والقتل والتدمير في قلوب الأمة العربية، ورفعوا علما من الدم ظنا منهم أن ذلك يرعب الأجيال القادمة، وقد خاب ظنهم.

مَـا ضـرَّ لَـوْ جَعلـوا العلاقـةَ فِـي غَـدٍ ∴ بـينَ الشـعوبِ مَـوَدَّةً وإِخَـاءَ؟

يتعجب الشاعر قائلا: ماذا يضر هؤلاء الطليان لو جعلوا المحبة والوئام تنتشر بين الشعوب بدلا من الرعب والدماء على ظهر الأرض؟ .

جُـرْحٌ يَصِـيحُ علـى المَـدَى وَضَـحِيَّةٌ ∴ تَـتَلَمَّسُ الحُرِيَّـةَ الحَمْـراءَ

ولكنهم جعلوا العلاقة بين الشعوب عبارة عن جرح ينزف دما، ويصيح في الفضاء ويصرخ طالبا الأخذ بالثأر ونيل الحرية، والحرية ثمنها غال، ولن تنال إلا بالتضحية وإراقة الكثير من الدماء الذكية .

يَـا أَيُّهـا السـيْفُ المُجَـرَّدُ بِـالفَلا ∴ يَكْسُـو السيوفَ عَلـى الزمـانِ مَضَـاءَ

أنت يا عمر المختار (سيف بتار) بطل شجاع، مركوز في الصحراء، يحيط بغيره من (السيوف) الأبطال الشجعان، ماض في تحقيق هدفك، وهو تحقق الحرية، ويستمدون منك معاني الشجاعة والتضحية والإقدام والفداء.

تِلْـكَ الصَـحَاري غِمْـدُ كُـلِّ مُهَنَّـدٍ ∴ أَبْلَـى فَأَحْسَـنَ فِـي العـدوِّ بَـلاءَ

يقول إن هذه الصحراء مكان كل سيف ضحى في سبيل حريته ، وأجاد القتل في العدو الطلياني حتى تحررت الأوطان من بطشهم.

وقُبـورُ مَـوْتَى مِـنْ شَـبَابِ أُمَيَّـةٍ ∴ وَكهـولِهم لَـمْ يَبْرَحُـوا أَحْيَـاءَ

يفتخر الشاعر بانتصارات الأمة الإسلامية في الماضي ؛ خاصة في فتوحات بني أمية حيث فتحوا كثيرا من البلاد ونشروا الإسلام فيها، وضحوا بأنفسهم رخيصة في سبيل ذلك، وكهولهم لا يزالون على قيد الحياة، فالصحراء أغماد تلك السيوف البتارة.

لَـوْ لاذَ بـالجوزاءِ[١] مـنهُم معقِـلٌ[٢] ∴ دَخَلُـوا عَلَـى أَبْراجِهَـا الجَـوْزاءَ

يثني الشاعر على شباب بني أمية ، فهم شجعان أقوياء، يتمكنون من أعدائهم حتى لو احتموا بالجوزاء، فالمسلمون قادرون على اللحاق بهم والنصر عليهم.

فَتَحُـوا الشَّـمالَ: سُـهولَهُ وجِبالَـهُ ∴ وَتَوغَّلُـوا، فَاسْـتعمروا الخَضـراءَ

وَبنَـوْا حضَـارتَهم، فطَـاوَلَ ركنُهـا ∴ (دَارَ السلامِ)[٣] و(جِلَّقَ)[٤] الشَّمَاءَ

يشيد الشاعر بانتصارات بني أمية وفتوحاتهم الإسلامية، ففتحوا بغداد ودمشق وبنوا أمجادهم ، فازدادت رقعة الدولة الإسلامية ، واستمرت فتوحاتهم ففتحوا بلاد الأندلس الخضراء فعمروها .

خُيِّرتَ فاخْتَرْتَ المبيتَ على الطَّوَى ∴ لـم تَـبْنِ جاهًـا، أوْ تَلُـمَ ثَـراءَ

يخاطب الشاعر عمر المختار، قائلا له: خيرت من قبل الطليان بين الحياة معهم والموت بكرامة؛ فاتخذت القرار سريعا من غير تردد، واخترت أن تعيش عفيفا حرا؛ زاهدا عن مغريات الدنيا ومباهجها كالجاه والثراء؛ مجاهدا في سبيل وطنك.

إنَّ البطولةَ أنْ تموتَ من الظَّما ∴ لـيسَ البطولـةُ أنْ تَعُـبَّ المـاءَ

يؤكد الشاعر إن البطولة الحقيقية أن يموت الإنسان الفدائي البطل يجاهد في سبيل الوطن ويقاتل في سبيل حريته وكرامته؛ حتى لو ترتب على ذلك موته عطشا، وليس البطولة أن يعيش راضيا بالذل والانكسار يعب من ماء الأعداء، فالمختار بطل عاش سعيدا ومات كريما.

إفريقِيـا مَهْـدُ الأُسـودِ وَلَحْـدُها ∴ ضَـجَّتْ عليـكَ أَراجِـلًا ونِسـاءَ

---

(١) الجوزاء: أحد أبراج السماء، ترتيبه الثالث بين الثور والسرطان، وزمنه من ٢١ من مايو إلى ٢١ من يونيه، لسان العرب: مادة: (ج زأ).

(٢) معقِل: المعقل : الملجأ والحصن والجمع معاقل، لسان العرب: مادة: (ع ق ل) .

(٣) دار السلام: بغداد(هامش الديوان ٦٠٣).

(٤) جلق: دمشق (هامش الديوان ٦٠٣).

في هذا البيت جعل الشاعر إفريقيا مهدا للرجال الأقوياء، وفي الوقت نفسه هي لحدهم بعد الموت يرقد فيها المختار وغيره من الأبطال الصناديد، فإفريقيا كلها رجالا ونساء حزنت عليه بعد إعدامه .

والمسلمون على اختلافِ ديارِهم ∴ لا يملِكون معَ المُصَابِ عَزاءَ

ومن ثم فالمسلمون في كل بقاع الأرض حزنوا على المختار، ومما زاد حزنهم أن الطليان سلبوهم حريتهم وكرامتهم ، ومنعوهم التعزية فيه، فالتعازي تخفف من حدة المصاب والحزن عليه .

والجاهليةُ من وراءِ قُبُورِهم ∴ يبكون زَيْدَ الخيلِ والفَلْحاءَ[1]

قد يقصد الشاعر بالجاهلية العصر الجاهلي الذي كان يعيش فيه زيد الخيل وعنترة بن شداد، فحينما ماتا بكوا فيهما البطولة والفداء ، وينبغي للمسلمين أن يبكوا المختار ويبكوا فيه التضحية، ويعدوه بطلا كغيره من الأبطال السابقين.

فِي ذِمَّةِ اللهِ الكريمِ وحفظِه ∴ جسَدٌ (ببرقة) [2] وُسِّد الصحراءَ

لمْ تُبْقِ منهُ رَحَى الوقائعِ أَعْظُمًا ∴ تَبْلَى، ولمْ يُبْقِ الرَّماحُ دِمَاءَ

كَرُفاتِ نَسْرٍ أو بَقِيَّةِ ضَيْغَمٍ ∴ باتا وراءَ السَّافِياتِ[3] هَباءَ

لتكن أيها المختار في أمان الله ورعايته، وليحفظ الله جسدك الذي دفن في صحراء برقة، فهو أهل لذلك فقد أبلى بلاء حسنا، وخاض كثيرا من المعارك

---

(١) الفلحاء: وكان عنترة العبسي يلقب بالفلحاء لأنه كان في شفته شق (جمهرة اللغة، تأليف : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ت ٣٢١هـ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م، الناشر: دار العلم للملاين، جـ ١، ص٥٥٥).

(٢) برقة : هي المنطقة الشرقية من ليبيا فتحها عمرو بن العاص سنة ٦٤١هـ(هامش الديوان ٦٠٣)، وبرقة بالضم من نواحي اليمامة، وبرقة موضع بالمدينة، وقيل: موضع كان فيه يوم من أيام العرب (معجم البلدان، تأليف : شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، الناشر/ دار الفكر، بيروت، جـ ١، ص٣٩٠ .

(٣) السافيات: الرياح وأسفت الريح التراب: سفته، ذرته ونثرته، لسان العرب: مادة:(س ف ي).

والحروب ضد الطليان في سبيل نصرة بلاده، فهذه المعارك قد أثرت على جسده، فأصبح كبقايا نسر أو أسد هبت عليهما ريح عاصفة محملة بالتراب ، عصفت بجسده وعظامه فجعلته هباء منثورا .

بَطَلُ البَداوةِ لَمْ يكنْ يَغْزُو على ∴ تَنْكٍ" [1] ولَمْ يَكُ يركبُ الأَجواءَ

لكنْ أَخُو خَيْلٍ حَمَى صَهَواتِها ∴ وأَدَارَ من أَعرافِها الهَيْجاءَ

في هذين البيتين يوضح الشاعر أن المعركة بين المختار وأعدائه غير عادلة، فالمختار وأنصاره يغزون على الخيل، والطليان يغزون على الدبابات، فقد خاض المختار المعارك كلها على فرسه ببسالة وشجاعة؛ يحمي شرف بلاده ويدافع عنها ضد المعتدين الطليان .

لَبَّى قضاءَ الأرضِ أَمسِ بمُهْجَةٍ ∴ لَمْ تَخْشَ إلَّا للسَّماءِ قَضاءَ

وافاهُ مَرْفُوعَ الجبينِ كأَنَّهُ ∴ سُقْراطُ [2] جَرَّ إلى القُضاةِ رِداءَ

لقد دافع المختار عن أرضه ووطنه بإخلاص، وكان دفاعه عن وطنه سببا في إعدامه على يد الطليان ، ولكنه واجه ذلك وهو مرفوع الجبين عزيزا شامخا كالجبال مؤمنا بمبادئه وبقضية بلاده، لم يخش إلا الله ﷻ، كأنه سقراط الذي لقي حتفه إثر محاكمة ظالمة قضت بإعدامه بتهمة الردة .

شَيْخٌ تمالَكَ سِنَّهُ لَمْ ينفجِرْ ∴ كالطفلِ من خوفِ العقابِ بُكاءَ

في هذا البيت يصف المختار بأنه شيخ مقدام لم تؤثر فيه السنون والأعوام، فهو قوي متماسك لم يخف في يوم من الأيام كالأطفال الذين يخافون العقاب؛ فهو شيخ راسخ الأقدام قوي الجأش.

وأَخُو أُمورٍ عاشَ في سَرَّائِها ∴ فتغيَّرَتْ، فتوقَّعَ الضَّرَّاءَ

---

(١) تنك : هي الدبابة المستعملة في الحروب ((هامش الديوان ٦٠٣).

(٢) سقراط : هو فيلسوف أثيني تمت محاكمته، وإدانته من قبل حكومة أثينا؛ بتهمة الردة، (مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، تاريخ النشر ٨ من ذي الحجة ١٤٣١هـ، العدد ١٩٥ ، ص٩٦).

لقد عاش المختار فارسا مغوارا ، متابعا للأحداث خائضا للمعارك في طمأنينة وسعادة، راضيا بما قسم الله عزوجل ، ثم تغيرت الأحوال فأصبح أسيرا بعد أن كان محاربا، وهذا أمر ربما كان متوقعا وحدث بالفعل.

الأُسْدُ تزأَرُ في الحديدِ ولن تَرى ∴ فِي السِّجنِ ضِرْغامًا بَكى استِخْذاءَ

في هذا البيت يصور رهبة المختار وهيبته فهو كالأُسْد التي تزأر بين قضبان الحديد؛ فتخيف الناس وتدخل الفزع والرعب في قلوبهم.

وأتَى الأَسيرُ يَجُرُّ ثِقْل حديدِهِ ∴ أَسَدٌ يُجَرِّرُ حَيَّةً رَقْطَاءَ[1]

في هذا البيت يصور الشاعر البطل المختار بين أيدي الطليان أسيرا ، فقد جاء وهو يجر القيود الحديدية المقيد بها ، وكأنه أسد يدوسها ولا يبالي بها على الرغم من ثقلها وخطورتها .

عَضَّتْ بِساقَيْهِ القُيودُ فلمْ يَنُؤْ[2] **∴ ومَشَتْ بهَيْكلِه السنون فناءَ**

تِسْعُونَ لو رَكِبَتْ مناكِبَ شاهقٍ ∴ لتَرَجَّلَتْ هَضَباتُه إعياءَ

فقد عضت هذه القيود الضيقة الثقيلة على ساقيه، فلم يعبأ بها ، ولكن مما زاد الحمل عليه وناء به وأنهكه؛ هو تقدم السن فقد خارت قواه وضعف، فقد عاش ما يقارب تسعين عاما من الكفاح والجهاد، وبدت علامات الشيخوخة عليه كغيره من الناس، فإن هذه السنين بما مر فيها من أحداث ومعارك لو علت جبلا شاهقا لانهد وانهدت هضباته.

خَفِيَتْ عن القاضي، وفاتَ نَصِيبُها ∴ من رِفْقِ جُنْدٍ قادةٍ نُبلاءَ

والسِّنُّ تَعْصِفُ كُلَّ قَلْبٍ مُهَذَّبٍ ∴ عَرَفَ الجُدودَ وأَدركَ الآباءَ

في هذين البيتين يسخر الشاعر من قادة وقضاة وجنود الأعداء الذين رأوا أثار الشيخوخة الواضحة على عمر المختار ولم ترق قلوبهم لحاله، فقد خفيت

---

(١) الرقطاء: دويبة من أخبث الدواب إذا دبت على طعام سمته، والرُّقْطَة: سواد تشوبه بياض أو بياض تشوبه نقط سوداء، لسان العرب: مادة: (ر ق ط).

(٢) ناء ينوء، وناء بحمله: أثقل به فسقط، لسان العرب: مادة: (ن اء).

هذه الأثار على القاضي الذي حكم عليه بالإعدام، ولم ينتبه لها الجنود الذين أعدموه، ومن المعروف أن الإنسان الهرم يثير شفقة القلب النقي الذي يتحلى صاحبه بالقيم والأخلاق، أما الطغاة الطليان فيتسمون بالخسة والوضاعة، ولا يعرفون شيئا من المبادئ الإنسانية والأخلاق النبيلة.

دَفعُوا إلى الجلَّادِ أَغْلَبَ ماجدٍ ∴ يأسُو الجِراحَ وَيُطلِقُ الأُسَراءَ

ويُشاطِرُ الأَقرانَ ذُخْرَ سِلاحِهِ ∴ وَيَصُفُّ حَوْلَ خِوانِه الأَعداءَ

في هذين البيتين يعدد مآثر المختار الذي حكم عليه الطليان بالإعدام ، فقد كان ذا بأس شديد، ومجد وعظمة وكبرياء، وكان يداوي جراح أنصاره، ويتقاسم ذخيرته وسلاحه مع الشجعان مثله، ويطلق الأسرى ولم ينتقم منهم، ويجلس مع الطليان الأعداء للتحدث والتفاوض.

وتخيَّروا الحبلَ المَهينَ مَنيَّةً ∴ للَّيْثِ يلفِظ حوْلَهُ الحَوْباءَ

حَرموا المماتَ على الصَّوارِمِ والقَنا ∴ مَنْ كانَ يُعْطِي الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ

وقد اختار الطليان للخلاص منه حبلا مهينا ليلفظ أنفاسه الأخيرة حوله، وحرموه الموت بالسيوف والرماح، وقد كان من أعظم الفرسان المحاربين وأكثرهم طعنا للأعداء .

إني رأيتُ يَدَ الحضارةِ أُولِعَتْ ∴ بالحقِّ هدْمًا تارةً وبِناءَ

شَرَعَتْ حُقوقَ الناسِ في أوطانِهم ∴ إلَّا أُباةَ الضَّيْمِ والضُّعَفاءَ

فهؤلاء الطليان وغيرهم من المستعمرين الغربيين لم يعرفوا العدل، وهم في الوقت نفسه ينادون بحقوق الإنسان؛ مع أنهم بعيدون كل البعد عن تحقيقها، خاصة مع أصحاب القيم والمبادئ ـ من الدول التي يحتلونها ـ الذين لا يتخلون عن حقوقهم كالمختار ورجاله البواسل، وكذلك مع الضعفاء المنكسرين الذين رضوا بحياة الذل والعبودية .

يَا أيُّها الشعبُ القريبُ، أسامعٌ ∴ فأَصوغُ في عُمَرِ الشَّهيدِ رثاءَ

ينادي الشاعر الشعب ، وينصحه بأن يحتذي بعمر المختار الذي رثاه وجعله مضرب المثل في التضحية والفداء، ويطلب من هذا الشعب أن يستيقظ من سباته، ويهب لنصرة بلاده.

أمْ أَلْجَمَتْ[1] فاكَ الخطوبُ وحَرَّمت ∴ أُذنَيْكَ حينَ تُخاطَبُ الإِصْغاءَ؟

يتساءل الشاعر أسمعت أيها الشعب، ووعيت لما أقول أم أصابتك عقدة الكلام وصمم الآذان؟ فأصبحت لا تتكلم ولا تسمع ولا تهتم بما يتعاقب من أحداث يشيب لها الولدان ، ثم يختم قصيدته بهذه الرسالة:

ذهبَ الزعيمُ وأنتَ باقٍ خالدٌ ∴ فانقُد رِجالَك واختَرِ الزُّعَماءَ

وأَرِحْ شيوخَكَ من تكالِيفِ الوَغَى ∴ واحْمِلْ عَلى فِتْيانِكَ الأعْباءَ

في هذين البيتين يبث الشاعر الأمل في نفوس الشعوب العربية، ويطلب منها أن تتمسك بحقها في اختيار الزعماء الأكفاء الأقوياء القادرين على القيادة والعبور بهم إلى طريق الحرية، فإن كان الزعيم قد أعدم فالشعب باق خالد، ويطلب من الشباب وهم رمز القوة والنشاط والفتوة أن يتحملوا المسئولية ، ويعملوا جاهدين لرفعة وطنهم بمساندة خبرات وتجارب الشيوخ الذين تحملوا الكثير من المتاعب ، فقد آن الأوان أن يرتاحوا .

(١) ألجمت : لجم يلجم لجما، ألجم الدابة : ألبسها اللجام ، وضع في فمها حديدة لقيادتها والسيطرة عليها، لسان العرب: مادة:(ل ج م).

المبحث الثالث

الألفاظ والأساليب في التجربتين

من المعروف أن ألفاظ وأساليب الشعراء القدامى تختلف عن المحدثين، واللغة تختلف من شاعر لآخر حسب ظروفه وثقافته، بل إن لغة الشاعر نفسه تختلف من قصيدة لأخرى حسب الغرض والموقف، فمطران من شعراء الرومانسية الذين تأثروا بآداب الغرب؛ فجاءت ألفاظه رقيقة عذبة تؤثر في المتلقي، وتشد انتباهه للمتابعة، من ذلك قوله :

كَذَا تُكَافِئُ "مِصْرُ" العَامِلِينَ بِمَا ∴ يَعْدُو الأَمَانِيَّ تَمْجِيدًا وَتَعْظِيمَا

أَكْرِمْ بِهَا وَهِيَ تَحْنُو الرَّأْسَ هَاتِفَةً : ∴ تَحِيَّةً أَيُّهَا القَتْلَى وَتَسْلِيمَا

كما بدا تأثره بالطبيعة وهيامه بها بشكل واضح في القصيدة وهو ملمح رومانسي، فقد استطاع مطران أن يحل في الطبيعة، ويضفي عليها من أحاسيسه ومشاعره ، من ذلك قوله :

يَا سَادَةً أَطْلَعَتْ "مِصْرُ" بِهِمْ شُهُبًا ∴ وَاللَّيْلُ خَيَّمَ بِالأَحْدَاثِ تَخْيِيمَا

فَمَا وَنَوْا لِلحِمَى عَنْ وَاجِبٍ وَبَنَوْا ∴ لِلمَجْدِ فِيهِ طِرافًا كَانَ مَهْدُومَا

فالشهب والليل من مظاهر الطبيعة التي اندمج معها، ووظفها في مدح مصر الحبيبة.

وتبدو الرومانسية في تفاعله مع الطبيعة كالشمس والبرق والكوثر والورد:

يُغْنِي مِنَ الشَّمْسِ فِي أَعْمَاقِ ظُلْمَتِهِ ∴ بَرْقٌ مِنَ الأَمَلِ المَوْمُوقِ إِنْ شِيمَا

"عَدْنٌ" عَلَى طِيبِهَا لَوْ شِيبَ كَوْثَرُهَا ∴ بِظِلِّ بَاغٍ لَعَادَ الوَرْدُ مَسْمُومَا

"فالشاعر العربي الحديث يقف عند الطبيعة ، ويختار منها ما تألفه نفسه وتحرك كوامن شجونه؛ جامعا بين ذلك التراث القومي القديم ، وبين ما يزخر

بـه الشـعر الغربـي والإنسـاني مـن شـعر الطبيعـة وبخاصـة فـي العصـر الرومانسي"[1].

ومن ألفاظه الرومانسية الرشيقة التي لم تدل على المعنى بوضوح، وإنما تحتاج إلى تفكير للوقوف على معناها، وربما تنتقل بنا إلى المجهول أو اللا شيء، قوله: أعماق الظلمة ، والأمل المومق، والورد المسموم .

ومن اللافت للنظر أن مطران وهو شاعر رومانسي يغلب على ألفاظه الحزن والألم ـ فقد شاع في اعتقاد الرومانسيين أن الألم يطهر النفس ويسمو بها ـ كانت ألفاظه في هذه القصيدة تدعو إلى التحدي والإصرار والتفاؤل كقوله:

أَجْـدِرْ بِرُزْئِـكَ لَـمْ تَحْـذَرْ عَوَاقِبَـهُ ∴ أَنْ يَفْجَعَ العُرْبَ تَخْصِيصًا وَتَعْمِيمَا

وَأَنْ يُـوَجِّجَ نَـارًا مِـنْ حَمِيَّـتِهِمْ ∴ وَأَنْ يَـرُدَّ فِرِنْـد[2] الصَّـبْرِ مَثْلُومَـا

وقوله :

اُمْضُـوا رِفَاقًـا كِرَامًـا حَسْـبُكُمُ عِوَضًـا ∴ فَخْرٌ عَزِيزٌ عَلَى الخُطَّابِ إِنْ رِيمَا

قَـدْ سِـرْتُمُ فِـي سَـبِيلِ الخَيْـرِ سِـيرَتَكُمْ ∴ مُحَقِّقِـينَ رَجَـاءً خِيـلَ مَوْهُومَـا

وتنوعت أساليب مطران بين الخبرية والإنشائية ، وجاءت كثيرة متنوعة سهلة قريبة ؛ فمن الأساليب التي استخدمها مطران أسلوب القصر؛ فقال :

للهِ يَـا "عُمَـرُ المُخْتَـارُ" حِكْمَتُـهُ ∴ فِـي أَنْ تُلَاقِـيَ مَـا لَاقَيْـتَ مَظْلُومَـا

قصر حكمة استشهاد المختار على الله ﷻ، قصر صفة على موصوف مستخدما التقديم والتأخير، للتخصيص والاهتمام بالمتقدم، والتشويق لمعرفة الحكمة من إعدامه، وهي تأجيج النار في نفوس الشعوب المحتلة للدفاع عن أوطانهم.

---

(١) مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر (بحث تاريخي وتحليلي مقارن)، تأليف: د/ محمود شوكت ، ود/ رجاء عيد ، دار الفكر العربي (د ـ ت) ، ص٨.

(٢) فرند : السيف ، استل فرنده : سيفه، لسان العرب: مادة: (ف رد).

واستخدم أسلوب التأكيد إن؛ ليؤكد أن التضحية بالنفس في سبيل الوطن عاقبتها محمودة، فقال :

إِنَّ الفِدَاءَ لَأَغْلَى مَا حَمِدت لَهُ ∴ أُخْرَى وَإِنْ كَانَ فِي أُولَاهُ مَذْمُومَا

وللتنبيه على دور مصر الفعال في مساندة الشعوب العربية المحتلة، استخدم أسلوب النداء، فقال :

يَا سَادَةً أَطْلَعَتْ "مِصْرُ" بِهِمْ شُهُبًا ∴ وَاللَّيْلُ خَيَّمَ بِالأَحْدَاثِ تَخْيِيمَا

فَمَا وَنَوْا لِلحِمَى عَنْ وَاجِبٍ وَبَنَوْا ∴ لِلمَجْدِ فِيهِ طِرافًا كَانَ مَهْدُومَا

واستخدم أسلوب الاستفهام (كم) للدلالة على كثرة أيادي مصر على الشعوب العربية، فقال:

أَعِزَّةٌ إِنْ بَدَا مِنْ فَضْلِهِمْ أَثَرٌ ∴ فَكَمْ لَهُمْ مِنْ جَمِيلٍ ظَلَّ مَكْتُومَا؟

وساق مطران في القصيدة كثيرا من الحكم التي تدل على رجاحة عقله، وقد أتى بها ليدعم بها كلامه ويقنع المتلقي بأفكاره، من ذلك قوله :

وَمَا اعْتِدَالُ زَمَانٍ لَا يُقَوِّمُهُ ∴ بَنُوهُ بِالصَّبْرِ وَالإِقْدَامِ تَقْوِيمَا

وقوله :

لَيْسَ الإِرَادَةُ إِلَّا مَنْ يَكُونُ عَلَى ∴ رَأْيٍ وَمَنْ يَتَنَاهَى فِيهِ تَصْمِيمَا

وقوله :

مَا المَوْتُ إِنْ تَكُ مَنْجَاةُ البِلَادِ بِهِ ∴ مِنْ غَاصِبٍ وَانْتِصَافُ الشَّعْبِ مَهْضُومَا

هَذَا هُوَ العَيْشُ وَالقِسْطُ العَظِيمُ بِهِ ∴ مِنْ خَالِدِ الفَخْرِ فَوْقَ العُمْرِ تَقْوِيمَا

أما شوقي فقد كان حريصا كل الحرص على انتقاء الألفاظ القوية الجزلة الفصيحة المعبرة عن معانيه، ومن ثم كانت ألفاظه وأساليبه تشبه إلى حد ما ألفاظ وأساليب الشعراء السابقين كالمتنبي وأبي تمام وغيرهما.

وقصيدته في رثاء عمر المختار جاءت ألفاظها واضحة عذبة ملائمة للغرض؛ مختارة بعناية مرتبة ترتيبا محكما، ليس فيها غموض ولا التواء، من ذلك قوله:

خُيِّرتَ فَاخْتَرْتَ المبيتَ على الطَّوَى ∴ لم تَبْنِ جاهًا، أوْ تَلُمَّ ثَراءَ

وكان موفقا في اختيار الألفاظ التي تدل على الحزن واللوعة والأسى، كقوله:

يَا وَيْحَهُم! نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ ∴ تُوحِي إِلَى جِيلِ الغَدِ البَغْضَاءَ

فجملة (نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ) تدل على القتل والتدمير والخراب ، فهذا الحدث الجلل وهو إعدام المختار قد أوغر صدور الأجيال القادمة ، وجعلهم حريصين على الأخذ بالثأر من الطليان والانتقام منهم، لذا قال:

جُرْحٌ يَصِيحُ فِي المَدَى وَضَحِيَّةٌ ∴ تَتَلَمَّسُ الحُرِيَّةَ الحَمْرَاءَ

(جُرْحٌ يَصِيحُ) جعل إعدام المختار جرحا ينزف دما، والدم من الأمور التي تثير الخوف والرعب والفزع في النفوس؛ بدليل قوله: (الحرية الحمراء)، والتي لم تتحقق إلا بإراقة الكثير من الدماء الذكية .

وفي مقام الفخر بشباب بني أمية الأقوياء استخدم ألفاظا قوية جزلة؛ وقال فيهم:

وقُبُورُ مَوْتَى مِنْ شَبَابِ أُمَيَّةٍ ∴ وَكهُولِهم لَمْ يَبْرَحُوا أَحْيَاءَ

لَوْ لاذَ بالجوزاءِ منهُم معقِلٌ ∴ دَخَلُوا عَلَى أَبْراجِهَا الجَوْزاءَ

فَتَحُوا الشَّمالَ: سُهولَهُ وجِبالَهُ ∴ وَتَوغَّلُوا، فَاسْتعمروا الخَضراءَ

وَبنَوْا حضَارتَهم، فطَاوَلَ ركنُها ∴ (دَارَ السلامِ) و(جِلَّقَ) الشَّمَاءَ

وخص شباب بني أمية لأنهم حققوا انتصارات ساحقة وإنجازات كثيرة ، حيث فتحوا كثيرا من البلاد ونشروا فيها الإسلام ، خاصة في عهد هشام بن عبد الملك ، فقد امتدت الدولة الأموية من الصين شرقا حتى فرنسا غربا.

وكذلك في مقام الفخر بإفريقيا؛ قال :

إفريقيا مَهْدُ الأُسودِ وَلَحْدُها ∴ ضَجَّتْ عليكَ أَراجِلًا ونِساءَ

فألفاظه قوية جزلة تتناسب مع مقام الفخر، فمثلا كلمة ضجت توحي بالصخب والصياح فهي أقوى من كلمة حزنت، وأتى بالجمع (أراجلا) للدلالة على تفخيم الحدث وتعظيمه، فمن المعروف أن الرجال أكثر ثباتا عند نزول

المصائب من النساء، ولكن الشاعر جعل الرجال أسبق حزنا وجزعا من النساء؛ لهول ما حل بالمختار من تنكيل.

ـ كما أكثر شوقي من استخدام الألفاظ الموحية مثل قوله :

رَكَـزُوا رُفَاتَـكَ فِـي الرِّمَـالِ لِـواءَ ∴ يَسْـتَنْهِضُ الـوَادِي صَـبَاحَ مَسَـاءَ

فركزوا توحي بالقوة والصلابة ، ولواء توحي بالاهتداء والاقتداء .

وفي قوله:

وافـــاهُ مَرْفُـــوعَ الجبـــينِ كأَنَّـــهُ ∴ سُـقْراطُ جَـرَّ إلـــى القُضـــاةِ رِداءَ

فمرفوع الجبين يوحي بالعزة والشموخ ، وجر إلى القضاة توحي بالثبات على المبدأ والثقة بالنفس.

وقوله:

والسِّـنُّ تَعْصِـفُ كُـلَّ قَلْـبٍ مُهَـذَّبٍ ∴ عَـــرَفَ الجُـــدودَ وأَدركَ الآبـــاءَ

فتعصف توحي بالعطف والشفقة والرقة، والجدود والآباء يوحيان بالعراقة والأصالة.

فقد كان شوقي ذا ثقافة واسعة باللغة، يحفظ موادا كاملة من المعاجم اللغوية(١).

ـ ونوع شوقي في الأساليب وكانت رصينة وقوية ، ومن الأساليب التي استخدمها أسلوب التوبيخ والتهكم ، وهذا الأسلوب يتناسب وحقارة الطليان وقبحهم:

يَـا وَيْحَهُـم! نَصَـبُوا مَنَـارًا مِـنْ دَمٍ ∴ تُـوحِي إِلَـى جِيـلِ الغَـدِ البَغْضَـاءَ

واستخدم الاستفهام متعجبا من موقف الطليان فقال:

مَـا ضَـرَّ لَـوْ جَعلـوا العلاقـةَ فِـي غَـدٍ ∴ بـــينَ الشـــعوبِ مَـــوَدَّةً وإِخَـــاءَ؟

وأكثر من استخدام أسلوب النداء لإثارة انتباه المتلقي للتأسي بالمختار، فقال:

---

(١) انظر: شوقي شاعر العصر الحديث، تأليف: شوقي ضيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠م ، ص٤٤ ـ ٤٥.

يَـا أَيُّهـا السـيْفُ المُجَـرَّدُ بِـالفَلا ∴ يَكْسُو السيوفَ عَلى الزمانِ مَضَاءَ

وفي نهاية القصيدة وجه رسالة للشعوب العربية؛ مستخدما أسلوبي النداء والاستفهام؛ لينتبهوا لما يقول ويستجيبوا له، ومن ثم يهبوا للدفاع عن بلادهم، فقال :

يَـا أيُّهـا الشـعبُ القريـبُ، أسـامعٌ ∴ فأَصـوغُ فـي عُمَـرِ الشَّـهيدِ رثـاءَ

أمْ أَلْجَمَـتْ[1] فـاكَ الخطـوبُ وحَرَّمـت ∴ أُذْنَيْـكَ حـينَ تُخاطَـبُ الإِصْـغاءَ؟

ومن تعبيراته الدينية قوله :

فِـي ذِمَّـةِ اللهِ الكـريمِ وحفظِـه ∴ جسَـدٌ (ببرقـة) [2] وُسِّـد الصـحراءَ

ومما يلفت النظر في معجمه هو استعانته بالموروث الشعري، من ذلك قوله:

يَـا أَيُّهـا السـيْفُ المُجَـرَّدُ بِـالفَلا ∴ يَكْسُو السيوفَ عَلى الزمانِ مَضَاءَ

تِلْـكَ الصَـحَاري غِمْـدُ كُـلِّ مُهَنَّـدٍ ∴ أَبْلَـى فَأَحْسَـنَ فِـي العـدوِّ بَـلاءَ

وقوله:

بَطَـلُ البَـداوةِ لـمْ يكـنْ يَغْـزُو علـى ∴ "تَنْـكٍ" ولـمْ يَـكُ يركـبُ الأَجـواءَ

لكـنْ أَخُـو خَيْـلٍ حَمَـى صَـهَوَاتِها ∴ وأَدَارَ مـن أَعرافِهـا الهَيْجـاءَ

فمن الألفاظ القديمة التي استخدمها (السيف ـ الفلا ـ غمد ـ البداوة ـ حمى ـ صهواتها ـ أعرافها)، وهذا لا يقلل من شاعريته، فلا يمكن فصل الشاعر عن موروثه القديم، وما تأثر به من أشعار السابقين، وهذا يدل على تمكنه في اللغة.

ومن مبالغاته النى تثير الدهشة؛ قوله في الثناء على شباب بني أمية:

وقُبـورُ مَـوْتَى مِـنْ شَـبَابِ أُمَيَّـةٍ ∴ وَكهـولِهم لَـمْ يَبْرَحُـوا أَحْيَـاءَ

لَـوْ لاذَ بـالجوزاءِ مـنهُم معقِـلٌ ∴ دَخَلُـوا عَلَـى أَبْراجِهَـا الجَـوْزاءَ

---

(١) ألجمت: لجم يلجم لجما، ألجم الدابة : ألبسها اللجام ، وضع في فمها حديدة لقيادتها والسيطرة عليها، لسان العرب: مادة: (ل ج م).

(٢) برقة: هي المنطقة الشرقية من ليبيا(هامش الديوان ، ص٦٠٣).

فَتَحُـوا الشَّـمالَ: سُـهولَهُ وجِبالَـهُ ∴ وَتوَغَّلُـوا، فَاسْـتعمروا الخَضـراءَ

ففي البيت الثاني وصفهم بالشجاعة البالغة، فلو احتمى عدو بالجوزاء واستتر بها؛ لتمكنوا من اللحاق به، وهذه مبالغة مقبولة أتى بها ليبرز شجاعتهم وقوتهم.

ومما يدعو للاستغراب أن مطران وهو شاعر مسيحي، استطاع بذكائه أن يوظف ثقافته الدينية لإثراء شعره من ناحية، ولتعزيز الجانب الديني في النفوس؛ فيحملهم على الإذعان بقضاء الله وقدره، وقد تأثر بما جاء في القرآن الكريم، من ذلك قوله :

إِنْ يَقْتُلُـوكَ فَمَـا إِنْ عَجَّلُـوا أَجَـلًا ∴ قَدْ كـانَ مُـذْ كُنْـتَ مَقْدُورًا وَمَحْتُومَا

هَلْ يَمْلِكُ الحَيُّ ، لَوْ دَانَتْ لَـهُ أُمَمٌ، ∴ لِأَمْـرِ رَبِّـكَ تَـأْخِيرًا وَتَقْـدِيمَا ؟

ففي البيت الأول تناص مع قوله . تعالى . :﴿**وَكَانَ أَمْـرُ ٱللَّهِ قَـدَرًا مَّقْدُورًا**﴾[1]، وفي البيت الثاني تناص مع قوله . تعالى - ﴿**وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾[2] وهذا التداخل بين القرآن الكريم ونصه أثرى شعره ، وحمل المتلقي على الاقتناع؛ والإيمان بأن لكل كائن على ظهر الأرض أجلا محدودا لا يستطيع تأخيره أو تقديمه .

وقوله :

اُمْضُوا رِفَاقًا كِرَامًا حَسْبُكُمُ عِوَضًا ∴ فَخْرٌ عَزِيزٌ عَلَى الخُطَّابِ إِنْ رِيمَا

وقد استدعى الشاعر قول الله . تبارك وتعالى . ﴿**وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِۚ**﴾[3] ليحثهم على التعاون ونبذ الفرقة والقطيعة.

وقوله :

مَا المَوْتُ إِنْ تَكُ مَنْجَاةُ البِلَادِ بِهِ ∴ مِنْ غَاصِبٍ وَانْتِصَافُ الشَّعْبِ مَهْضُومَا

---

(١) سورة الأحزاب آية ٣٨.

(٢) سورة الأعراف آية ٣٤.

(٣) سورة المائدة آية ٢.

هَذَا هُوَ العَيْشُ وَالقِسْطُ العَظِيمُ بِهِ ∴ مِنْ خَالِدِ الفَخْرِ فَوْقَ العُمْرِ تَقْوِيمَا

فقد تأثر بقوله . تعالى . ﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[1] ليؤكد أن من استشهد في سبيل الله فهو حي عند الله وخالد في قلوب الناس.

وقوله:

كَمْ كُبِّلَ الحَقُّ بِالأَصْفَادِ مِنْ قِدَمٍ ∴ فَلَمْ تَضِرْهُ، وَرُدَّ البُطْلُ مَهْزُومَا؟

فقد تناص مع القرآن الكريم في قوله . تعالى . ﴿**وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا**﴾[2] ليقنع المتلقي بالتمسك بالحق؛ فكثيرا ما رد الباطل مهزوما، وبهذا يكون مطران استدعى الآيات القرآنية التي تؤيد أفكاره وتقنع المتلقي بما يريد؛ في حين فات شوقي هذا الجانب في قصيدته؛ مع أن له قصائد كثيرة في الشعر الإسلامي ومدح الرسول ﷺ.

(١) سورة آل عمران آية ١٦٩.

(٢) سورة الإسراء آية ٨١.

المبحث الرابع

الموسيقا والإيقاع في التجربتين

الموسيقا الشعرية عنصر أساس من عناصر الشعر، وتنقسم إلى: موسيقا خارجية تنبعث من خلال الوزن والقافية؛ حيث ينشأ عنهما وحدة النغم والإيقاع فتطرب الأذن لسماعهما وتكرارهما كما تطرب لسماع الموسيقى، وموسيقا داخلية: تنبعث من حسن اختيار الشاعر لحروفه وكلماته وتآلفها وانسجامها، ومن فنون البلاغة كالمحسنات البديعية، وهي تدل على إبداع الشاعر وتميزه .

هذا وقد اختلفت قصيدتا مطران وشوقي في الموسيقا الخارجية؛ فجاءت قصيدة مطران على بحر البسيط ،" فموسيقاه هادئة متدفقة، وإن كان إيقاعه واضحا ، وكأنه استبقى النبرة الضعيفة على كلا المقطعين الأخيرين في (مستفعلن وفاعلن) فهو ذو وزن مركب(١)، ولأن مطران شاعر رومانسي اختار بحر البسيط؛ فهو "بحر راقص يتصف بنغماته العالية وبتغير حركي موجي ارتفاعا وانخفاضا؛ حتى إن إيقاعه يتعلمه بيسر كل من لم يلم بالعروض؛ لأن سهولة موسيقاه الطاغية تقود الأذن إلى دقة تركيبه بمجرد تكرار أبيات مقطعة نغميا "(٢).

أما القافية فهي الحرف الذي تبنى عليه القصيدة وتنسب إليه، فقد تمثلت في حرف الميم الموصولة بالألف، وهي ملائمة لجو الحزن ومعبرة عن مشاعره.

وقد جاءت الموسيقا الداخلية في قصيدة مطران عذبة سلسة؛ انبعثت من تآلف الألفاظ وانسجامها، وترابط التراكيب والأساليب، والتعبير عنها بعاطفة جياشة وبصور حية نابضة، من ذلك قوله مكررا حرف السين في قوله:

لَكِنَّهَا عِظَةٌ لِلشَّرْقِ أَوْسَعَهَا ∴ مُصَابُهُ بِكَ فِي الأَخْلَادِ تَجْسِيمَا

---

(١) انظر: موسيقى الشعر العربي، تأليف : شكري محمد عياد(مشروع دراسة علمية)، دار المعرفة مصر، ص٩٢.

(٢) موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه . دراسة وتطبيق في شعر الشطرين والشعر الحر، د. عبد الرضا علي، دار الشروق للنشر والتوزيع، فلسطين ١٩٩٧م، ص١٢١.

لَعَلَّـــهُ مُسْـــتَفِيقٌ بَعْـــدَ ضَـــجْعَتِهِ ∴ أَوْ مُسْتَقِيلٌ مِنَ الخَسْفِ الَّذِي سِيمَا

فالسين من حروف الهمس، وتكرارها يحدث نغمة إيقاعية هادئة تعمق الإحساس بالموسيقا، ويتأثر المتلقي بسحرها .

وقوله في مخاطبة المختار :

أَجْـدِرْ بِرُزْئِـكَ لَـمْ تَحْـذَرْ عَوَاقِبَـهُ ∴ أَنْ يَفْجَـعَ العُرْبَ تَخْصِيصًـا وَتَعْمِيمَـا

وَأَنْ يُـــوَجِّجَ نَـــارًا مِـــنْ حَمِيَّـــتِهِمْ ∴ وَأَنْ يَـــرُدَّ فِرِنْـــدَ الصَّـــبْرِ مَثْلُومَـــا

كرر الشاعر أن والفعل المضارع (أَنْ يَفْجَعَ - وَأَنْ يُوَجِّجَ - وَأَنْ يَرُدَّ) ، ومثل هذا التكرار يعمل على تعميق الحالة الشعورية، وإلقاء الضوء على تجربته النفسية، كما كرر حرف الراء كثيرا؛ فقد كررها ثماني مرات في بيتين، وهو صوت جهوري يتناسب مع التحدي الذي شاع في البيتين، وهذا التكرار يولد جرسا موسيقيا له أثره في نفس المتلقي .

ومن الموسيقا الداخلية التي تولدت من فنون البديع في قصيدة مطران، منها ما جاء عن طريق التصريع كقوله :

أَبَيْتَ والسَّيْفُ يَعْلُو الرَّأْسَ تَسْلِيمَا ∴ وَجُدْتَ بالرُّوحِ جُودَ الحُرِّ إِنْ ضِيمَا

فقافية الشطر الأول ورويه (تسليما)؛ متفقة مع قافية الشطر الثاني ورويه (إن ضيما)، وهو يكسب البيت سحرا وجمالا ويزيده ثراء وموسيقا.

ويبدو جمال الموسيقا الشعرية من خلال الطباق؛ الذي ورد كثيرا في قصيدة مطران ، من ذلك قوله:

أَبَيْتَ والسَّيْفُ يَعْلُو الرَّأْسَ تَسْلِيمَا ∴ وَجُدْتَ بالرُّوحِ جُودَ الحُرِّ إِنْ ضِيمَا

تَـذكرُ العُـرْبَ وَالأَحْـدَاثُ مُنْسِـيَةٌ ∴ مَا كَانَ، إِذْ مَلَكُوا الدُّنْيَا لَهُمْ خِيمَا

فقد طابق في البيت الأول بين (أَبَيْتَ) و(وَجُدْتَ)، وفي البيت الثاني طابق بين (تذكر) و(منسية)، وهذا الطباق يبرز المعنى ويوضحه، فالضد يظهر حسنه الضد.

واستعان بالطباق في توضيح فكرته حول إعدام المختار؛ فقال :

هَلْ يَمْلِكُ الحَيُّ، لَوْ دَانَتْ لَهُ أُمَمٌ، ∴ لِأَمْرِ رَبِّكَ تَأْخِيرًا وَتَقْدِيمَا؟

طابق بين (تأخير) و(تقديم) في الشطر الثاني؛ ليوضح أن الموت والحياة بأمر الله ﷻ لا دخل للإنسان فيهما .

ومن الطباق قوله :

لَعَلَّهُ مُسْتَفِيقٌ بَعْدَ ضَجْعَتِهِ ∴ أَوْ مُسْتَقِيلٌ مِنَ الخَسْفِ الَّذِي سِيمَا

أَجْدِرْ بِرُزْئِكَ لَمْ تَحْذَرْ عَوَاقِبَهُ ∴ أَنْ يَفْجَعَ العُرْبَ تَخْصِيصًا وَتَعْمِيمَا

في البيت الأول طابق بين (مستفيق) و(مستقيل) ، وفي الشطر الثاني من البيت الثاني طابق بين (تخصيص) و(تعميم).

وطابق بين (حاكم) و(محكوم) ، فقال :

لَا حَاكِمًا دُونَ مَا أَوْحَتْ ضَمَائِرُكُمْ ∴ تُرَاقِبُونَ وَلَا تَرْعَوْنَ مَحْكُومَا

ومن الطباق قوله :

مَا المَوْتُ إِنْ تَكُ مَنْجَاةُ البِلَادِ بِهِ ∴ مِنْ غَاصِبٍ وَانْتِصَافُ الشَّعْبِ مَهْضُومَا

طابق بين (انتصاف) و(مهضوم) في الشطر الثاني من البيت.

ومن الطباق قوله :

إِنَّ الفِدَاءَ لَأَغْلَى مَا حَمِدت لَهُ ∴ أُخْرَى وَإِنْ كَانَ فِي أُولَاهُ مَذْمُومَا

وَمَا اعْتِدَالُ زَمَانٍ لَا يُقَوِّمُهُ ∴ بَنُوهُ بِالصَّبْرِ وَالإِقْدَامِ تَقْوِيمَا

كَمْ كُبِّلَ الحَقُّ بِالأَصْفَادِ مِنْ قِدَمٍ ∴ فَلَمْ تَضِرْهُ، وَرُدَّ البُطْلُ مَهْزُومَا؟

في البيت الأول طابق بين (حمدت) و(مذموم)، وفي البيت الثاني جاء طباق السلب بين (لا يقومه) و(تقويم)، وفي البيت الثالث طابق بين (الحق) و(البُطْلُ).

ومن الطباق قوله:

فَمَا وَنَوْا لِلحِمَى عَنْ وَاجِبٍ وَبَنَوْا ∴ لِلمَجْدِ فِيهِ طِرَافًا كَانَ مَهْدُومَا

أَعِزَّةٌ إِنْ بَدَا مِنْ فَضْلِهِمْ أَثَرٌ ∴ فَكَمْ لَهُمْ مِنْ جَمِيلٍ ظَلَّ مَكْتُومَا؟

وَلِلفِــدَى كَالنَّــدَى حَــالٌ مُنَزَّهَــةٌ ∴ فِـي حُكْمِهَـا يَـنْفُسُ المَجْهُـولُ مَعْلُومَـا

في البيت الأول طابق بين(بنوا) و(مهدوم)، وفي البيت الثاني طابق بين(بدا) و(مكتوم)، وفي البيت الثالث بين (المجهول) و(معلوم) .

ومن المقابلة بين الشطرين قوله :

وَعَـلَّ أَشْـقَاهُمُ البَّـاقِي عَلَـى كَمَـدٍ ∴ وَعَـلَّ أَرْوَحَهُـمْ مَـنْ قَـرَّ مَرْحُومَـا

فاستخدم المقابلة ليبرز أثر الاحتلال على الشعوب، فمن بقي منهم على قيد الحياة فهو في كمد، ومن قتل على أيديهم فهو في رحمة من الله ﷻ.

كما أكثر مطران من استخدام رد العجز على الصدر؛ لما له من أثر موسيقي عذب يطرب الأذن؛ فتنتبه لسماع الكلمات المكررة وتوقعها ، كما أنه يعمل على تلاحم الأساليب وترابطها، ومن ذلك قوله :

هَيْهَــاتَ نُوفِيــكَ وَالأَقْــوَالُ عُــدَّتُنَا ∴ حَقًّـا، وَنُـوفِي الصَّـنَادِيدَ المَقَاحِيمَـا

فقد رد (نوفي) في الشطر الثاني على (نوفيك) في الشطر الأول، وهذا الرد وتوقع الكلمة لدى المتلقي يحدث نغما موسيقيا عذبا.

ومن ذلك قوله:

لَا حَاكِمًـا دُونَ مَـا أَوْحَـتْ ضَـمَائِرُكُمْ ∴ تُرَاقِبُــونَ وَلَا تَرْعَــوْنَ مَحْكُومَــا

يُحَطِّــمُ العَظْــمُ مِــنْكُمُ دُونَ بُغْيَــتِكُمْ ∴ فَمَـا تَهُـونُ، وَيَـأْبَى العَـزْمُ تَحْطِيمَـا

وهذا الترديد بين آخر البيت وأوله؛ يجذب النفس ويشدها ويقوي نغم القافية، وقوله:

مَا السِّجْنُ حِينَ يُذَادُ الخَسْفُ عَنْ وَطَنٍ ∴ بِعَـارِهِ بَـاءَ فِـي الأَوْطَـانِ مَوْصُـومَا؟

رد (الأوطان) حشو المصراع الثاني على (وطن) آخر المصراع الأول؛ لما لها من حسن وقع في السمع؛ فهي من الكلمات المحببة .

وقوله:

وَسَــامَ صَــبْرًا إِلَــى أَنْ فَــازَ مُقْــتَحِمٌ ∴ يَفُـكُّ شَـعْبًا مِـنَ الضَّـيْمِ الَّـذِي سِـيمَا

يَـا سَـادَةً أَطْلَعَتْ "مِصْـرُ" بِهِـمْ شُـهُبًا ∴ وَاللَّيْــلُ خَــيَّمَ بِالأَحْــدَاثِ تَخْيِيمَــا

أما قصيدة شوقي فجاءت على بحر الكامل، "فالكامل من أكثر بحور الشعر العربي غنائية ولينا وتنغيما ، إلى جانب كونه يتألف من وحدة صافية مفردة مكررة، فإن الشعراء استثمروا إيقاعه وحلاوته، ونظموا فيه كثيرا من تجاربهم الفنية"(١)، ومن هؤلاء الشعراء أحمد شوقي ، فقد لُحظ ميله الشديد إلى البحر الكامل والنظم فيه، حيث نظم ٢٧% من أشعاره على هذا البحر أي ما يزيد على ربع شعره (٢). لذا جاءت قصيدته في رثاء عمر المختار على بحر الكامل، وهو ملائم لجو الحزن؛ واستطاع من خلاله أن ينفس عما بداخله.

وبنى قصيدته على حرف الهمزة المسبوقة بمد بالألف؛ وقد جاءت القافية معبرة عن إحساسه بالحزن موحية بالصرخات والآهات.

أما الموسيقا الداخلية أو الخفية فقد جاءت عذبة أخاذة؛ إما نابعة من فنون البديع كالتصريع، والجناس، والطباق، والمقابلة، ورد العجز على الصدر وغيرها، وإما من خلال انسجام الحروف وتآلفها، واختيار الكلمات وترتيبها ترتيبا محكما في أساليب جزلة وصور بارعة وعاطفة جياشة.

وقد جاء التصريع في البيت الأول من القصيدة :

رَكَـزُوا رُفَاتَـكَ فِـي الرِّمَـالِ لِـواءَ ∴ يَسْـتَنْهِضُ الـوَادِي صَـبَاحَ مَسَـاءَ

فقافية الشطر الأول ورويه (لواء) متفقة مع قافية الشطر الثاني ورويه (مساء)؛ مما يحقق نغما موسيقيا عذبا.

ومن رد العجز على الصدر قوله :

تِلْـكَ الصَـحَارِي غِمْـدُ كُـلِّ مُهَنَّـدٍ ∴ أَبْلَـى فَأَحْسَـنَ فِـي العـدوِّ بَـلاءَ

---

(١) موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه . دراسة وتطبيق في شعر الشطرين والشعر الحر، د. عبد الرضا علي، ص٤٤.

(٢) انظر: موسيقى الشعر، إبراهيم أنيس، ملتزم الطبع والنشر/ مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٥٢م، مطبعة لجنة البيان العربي، ص١٩٨ ـ ١٩٩.

فقد رد (بلاء) التي في عجز الشطر الثاني على (أبلى) التي في أول الشطر الثاني، وهذا التكرير يعمل على تلاحم البيت وترابطه؛ مما يعطي نغما موسيقيا ناجما من توقع الكلمة وترديدها .

وكذلك رد (السيوف)على (السيف) ليؤكد قيادة المختار الحكيمة لجيشه؛ فقال:

يَا أَيُّهَا السَيْفُ المُجَرَّدُ بِالفَلا ∴ يَكْسُو السيوفَ عَلى الزمانِ مَضَاءَ

ومن رد العجز على الصدر، تكرير كلمة (الجوزاء) في قوله :

لَوْ لاذَ بالجوزاءِ منهُم معقِلٌ ∴ دَخَلُوا عَلَى أَبْراجِهَا الجَوْزاءَ

ومن المقابلات التي أدت دورها في توضيح معنى البطولة، قوله :

إنَّ البطولةَ أنْ تموتَ من الظَّما ∴ ليسَ البطولةُ أنْ تَغُبَّ الماءَ

فقد قابل الشاعر بين الشطر الأول والثاني . وهذه المقابلة لها أثرها في إحداث نغمة موسيقية عذبة.

وقابل الشاعر بين الشطر الأول والثاني في قوله :

وأَرِحْ شيوخَكَ من تكالِيفِ الوَغَى ∴ واحْمِلْ عَلَى فِتْيانِكَ الأعْباءَ

وقد ورد الطباق بكثرة في قصيدة شوقي؛ لما له من أثر في توضيح المعنى، منها قوله:

إفريقيا مَهْدُ الأُسودِ وَلَحْدُها ∴ ضَجَّتْ عليكَ أَراجِلًا ونِساءَ

فقد طابق الشاعر بين (مهد) و(لحد) في الشطر الأول، وبين (أراجل) و(نساء) في الشطر الثاني ، فرجال جمع رجل وليست أراجل، وأتي بها لتفخيم الحدث وتهويله .

ومن طباق السلب قوله:

عَضَّتْ بِساقَيْهِ القُيودُ فلمْ يَئُؤْ ∴ ومَشَتْ بهَيْكلِه السنون فناءَ

فقد طابق بين (فلم ينوء) و(فناء) .

ومن الطباق قوله:

وقُبــورُ مَــوْتَى مِــنْ شَــبَابِ أُمَيَّــةٍ ∴ وَكهــولِهم لَــمْ يَبْرَحُــوا أَحْيَــاءَ

طابق بين (موتى) و(أحياء) ، وبين (شباب) و(كهولهم) .

وطابق بين (هدم) و(بناء) في الشطر الثاني من البيت، فقال :

إنــي رأيــتُ يَـدَ الحضــارةِ أُولِعَــتْ ∴ بـــالحقِّ هـــدْمًا تـــارةً وبِنـــاءَ

ومن الطباق قوله:

ذهــبَ الــزعيمُ وأنــتَ بــاقٍ خالــدٌ ∴ فانقُــد رِجالَــك واخْتَــرِ الزُّعَمــاءَ

طابق بين (ذهب) و(باق) في الشطر الأول ، ورد (الزعماء) التي في عجز الشطر الثاني على (الزعيم) في حشو الشطر الأول .

ومن الموسيقا الداخلية التي جاءت من حسن اختيار الألفاظ وترتيبها وتنسيقها، وترابط الأفكار وتسلسلها، وصوغها في أساليب قوية، وتصوير فني معبر عن عاطفة الشاعر ومشاعره ، من ذلك قوله :

دَفعُوا إلــى الجــلَّادِ أَغْلَــبَ ماجِــدًا ∴ يأسُــو الجِــراحَ وَيُطلِــقُ الأُسَــراءَ

ويُشــاطِرُ الأَقــرانَ ذُخْــرَ سِــلاحِهِ ∴ وَيَصُــفُّ حَــوْلَ خِوانِــه الأَعــداءَ

وتخيَّــروا الحبــلَ المَهِــينَ مَنيَّــةً ∴ للَّيْــثِ يلفِــظ حوْلَــهُ الحَوْبــاءَ

في هذه الأبيات يعدد الشاعر مآثر المختار فاستخدم الفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار، فأتى بـ (يأسو ـ ويطلق ـ ويشاطر ـ ويصف)، وحينما حكموا عليه بالإعدام جاء بالفعل الماضي (تخيروا الحبل) ليدل على الثبات، وصوره بالأسد الذي يلفظ أنفاسه حول حبل الإعدام، وكرر حرف المد الألف كثيرا لأن امتداد الصوت يناسب اللوعة والحسرة، ويعمل على تكثيف الحالة النفسية الحزينة ليشد الانتباه، فقد "كان شوقي يعرف دائما كيف يستخرج من ألفاظ اللغة كل ما تملك من رنين أو جرس، أو بعبارة أدق كل ممكناتها الموسيقية"[1] وهذا التناسب والتناسق بين الكلمات والأفعال والحروف مع إحساس الشاعر وعاطفته؛ قد حقق موسيقا داخلية لها أثرها الأخاذ على المتلقي.

(١) شوقي شاعر العصر الحديث : شوقي ضيف ، ص٤٤.

المبحث الخامس

الصورة الفنية في التجربتين

الصورة الفنية أساس العمل الشعري، ولها أثرها البارز في التعبير عن المشاعر، وتوضيح المعنى وتقريبه من الأذهان في صورة محسوسة؛ مما يؤثر في نفس المتلقي أبلغ تأثير، وهذا يتطلب براعة ومقدرة من الشاعر.

وقد جاءت صور مطران في قصيدته قليلة رقيقة خالية من العمق والدقة، وكانت أغلبها صورا قائمة على التجسيم، من ذلك قوله:

أَجْـدِرْ بِرُزْئِـكَ لَـمْ تَحْـذَرْ عَوَاقِبَـهُ ∴ أَنْ يَفْجَعَ العُرْبَ تَخْصِيصًا وَتَعْمِيمَا

وَأَنْ يُـوَجِّجَ نَـارًا مِـنْ حَمِيَّـتِهِمْ ∴ وَأَنْ يَـرُدَّ فِرِنْـدَ الصَّـبْرِ مَثْلُومَـا

شبه الصبر وهو معنوي بالسيف وهو مادي، وجعل للصبر جرابا؛ يرد ويرجع على سبيل التجسيم، وهذه الصورة تدل على نفاذ الصبر وبلوغ منتهاه.

ومن صوره كذلك :

مِنَ الأُولَى صَبَرُوا الصَّبْرَ الجَمِيلَ وَقَدْ ∴ ذَاقُـوا الكَـرِيهَيْنِ تَقْتِـيلًا وَتَكْلِيمَـا

فقد جعل الكريهين وهما القتل والتجريح كالطعام الذي يذاق، شبه المعنوي بالمحسوس لتقريب الصورة من الأذهان، حيث تبرز كثرة تعرض الأبطال الشجعان الصابرين للقتل والجراح ؛ فهم من يتلقون الموت بصدورهم بكل شجاعة.

ومن صور مطران التي اعتمدت على التجسيم قوله :

لَا حَاكِمًا دُونَ مَا أَوْحَتْ ضَمَائِرُكُمْ ∴ تُرَاقِبُـونَ وَلَا تَرْعَـوْنَ مَحْكُومَـا

يُحَطِّـمُ العَظْـمُ مِـنْكُمُ دُونَ بُغْيَـتِكُمْ ∴ فَمَـا تَهُـونُ، وَيَـأْبَى العَـزْمُ تَحْطِيمَـا

جعل العزم وهو معنوي كالإنسان الذي يرفض، وهذه الصورة تكشف عن شدة إصرار وقوة عزيمة الشعب ذي الإرادة والتصميم.

ومن صوره الجيدة القائمة على التجسيم قوله :

كَـمْ كُبِّـلَ الحَـقُّ بِالأَصْـفَادِ مِـنْ قِـدَمٍ ∴ فَلَـمْ تَضِـرْهُ، وَرُدَّ البُطْـلُ مَهْزُومَـا؟

وَسَـامَ صَـبْرًا إِلَـى أَنْ فَـازَ مُقْـتَحِمٌ ∴ يَفُـكُّ شَـعْبًا مِـنَ الضَّـيْمِ الَّـذِي سِـيمَا

في البيت الأول جعل الحق وهو معنوي كالأسير الذي يقيد ولم يبال بالقيود، وجعل البُطْل وهو معنوي كالمستعمر الذي يرجع مهزوما، وفي البيت الثاني جعل الصبر وهو معنوي يتدخل في الأحداث فيفوز ويفك الشعب من الذل، وفي ذلك دلالة قوية على أن التمسك بالحق والتحلي بالصبر والالتزام بهما ـ في كل أمور الحياة وخاصة المصيرية منها ـ عاقبتهما محمودة.

ومن صور مطران الرائعة التي ساقها لمدح مصر قوله :

يَـا سَـادَةً أَطْلَعَتْ "مِصْـرٌ" بِهِـمْ شُـهُبًا ∴ وَاللَّيْـلُ خَـيَّمَ بِالأَحْـدَاثِ تَخْيِيمَـا

شبه وطننا الحبيب مصر بالشهب والنجوم التي تهدي وتضيء الطريق لغيرها من الشعوب، وجسم الليل وجعله يخيم بالأحداث ويكتمها، وهذه الصورة تبرز دور مصر الفعال في مساندة الشعوب العربية الأخرى وشد أزرها.

ومن صوره التشبيهية قوله :

وَلِلفِـدَى كَالنَّـدَى حَـالٌ مُنَزَّهَـةٌ ∴ فِـي حُكْمِهَـا يَـنْفُسُ المَجْهُولُ مَعْلُومَـا

شبه التضحية والفداء بالنفس كالندى (قطرات الماء الباردة التي تتساقط على الأرض) أي واضحة ومعلومة للجميع، وهذه الصورة تدل دلالة واضحة على غاية السخاء والجود، فليس هناك أغلى من النفس ليجود بها الإنسان رخيصة في سبيل تحرير وطنه .

ومن صوره التي اعتمدت على التجسيم قوله في مصر:

كَـذَا تُكَـافِئُ "مِصْـرُ" العَـامِلِينَ بِمَـا ∴ يَعْـدُو الأَمَـانِيَّ تَمْجِيـدًا وَتَعْظِيمَـا

حيث بث الحياة في الأماني وجعلها تركض وتسير، وفي ذلك إشارة إلى تعظيم الأبطال وتكريمهم.

أما الصور عند شوقي فكانت موحية كثيرة متنوعة عميقة؛ تنم عن خيال واسع ورؤية دقيقة، فاستطاع أن يصور لنا الأحداث والمواقف وكأنها تحدث أمامنا، واهتم بدقائق الأمور وتفصيلاتها.

فمن صوره قوله:

رَكَـزُوا رُفَاتَـكَ فِـي الرِّمَـالِ لِـواءَ ∴ يَسْتَنْهِضُ الـوَادِي صَبَاحَ مَسَـاءَ

جعل رفاة البطل وبقايا جسده المدفون في الرمال لواء يتقدم أمام الجنود ويرشدهم، ويحثهم على المقاومة وترك الخمول في كل وقت وحين، وهذه الصورة بينت أن إعدام الطليان للمختار كان بمثابة الشرارة التي اشتعلت في قلوب الناس؛ والجرح الذي ينادي بأخذ الثأر من الطليان، وتحرير بلادهم، وهذا واضح من خلال هذه الصورة التالية:

جُرْحٌ يَصِيحُ على المَدَى وَضَحِيَّةٌ ∴ تَـــتَلَمَّسُ الحُرِيَّـــةَ الحَمْـــراءَ

ومن صوره القديمة قوله في مدح المختار :

يَـا أَيُّهَـا السـيْفُ المُجَـرَّدُ بِـالفَلا ∴ يَكْسُو السيوفَ عَلى الزمانِ مَضَاءَ

تِلْـكَ الصَـحَاري غِمْـدُ كُـلِّ مُهَنَّـدٍ ∴ أَبْلَـى فَأَحْسَـنَ فِـي العـدوِّ بَـلاءَ

فتشبيه الرجل الشجاع بالسيف في البيت الأول صورة طالما تكررت كثيرا في شعر الشعراء القدامى، ولكن الجديد فيها هو كونه يقود أتباعه ويحيط بهم ويحثهم على المضي، وفي البيت الثاني جعل الصحراء جراب كل سيف أي مدفنا ومكانا يسكن فيه كل مجاهد في سبيل تحرير وطنه من الأعداء ، وهذه الصورة تدل على شجاعته القوية وقيادته المحنكة؛ لذا كان الطليان حريصين على التخلص منه.

كما جعل صحراء برقة على امتدادها وسادة للمختار؛ تعظيما وتقديرا له وعرفانا بكفاحه وجهاده، فقال :

فِـــي ذِمَّـــةِ اللهِ الكـــريمِ وحفظِـــه ∴ جسَـدٌ (ببرقـة) وُسِّـد الصـحراءَ

ومن صوره التي تبرز فخره بإفريقيا، فقد جعلها مهد الشجعان ولحدهم بعد مماتهم؛ قوله:

إفريقيـا مَهْـدُ الأُسـودِ وَلَحْـدُها ∴ ضَـجَّتْ عليـكَ أَراجِـلًا ونِسـاءَ

ومن صوره الموحية التي تبرز شجاعة المختار وكفاحه قوله:

لمْ تُبْقِ منهُ رَحَى الوقائعِ أَعْظُمًا ∴ تَبْلَى، ولمْ يُبْقِ الرَّماحُ دِمَاءَ

كَرُفاتِ نَسْرٍ أو بَقِيَّةِ ضَيْغَمٍ ∴ باتا وراءَ السَّافِياتِ هَباءَ

فقد جعل الشاعر للوقائع والأحداث وهي شيء معنوي رحى(أداة يطحن بها)، تطحن المختار فلم تبق منه لا عظما ولا لحما ، ولم يكتف الشاعر بهذه الصورة ولكن بالغ في محو أثره فجعله كبقايا نسر أو أسد طيرتهما الرياح، وهذه الصورة الدقيقة تكشف عن جسامة فعل السنين والأحداث وثقلها عليه.

كان شوقي واسع الخيال غني التصوير؛ لم تكن تفوته لفتة أو حركة لشيء أو لصورة إلا اختزنها في ذاكرته ووعاها في حافظته؛ ليلقي بها عند الحاجة رسما أو لوحة باهرة(١).

ومن الكنايات المعبرة عن شجاعة المختار، وخوضه للمعارك والحروب على ظهر الخيل قوله :

لكنْ أَخُو خَيْلٍ حَمَى صَهَواتِها ∴ وأَدَارَ من أَعرافِها الهَيْجاءَ

ومن الكنايات التي تدل على متابعته للأحداث وسعة خبرته ورجاحة عقله، قوله:

وأَخُو أُمورٍ عاشَ في سَرَّائِها ∴ فتغيَّرَتْ، فتوقَّعَ الضَّرَّاءَ

ومن صوره التي اعتمد فيها على التشبيه لتقريبها إلى الأذهان قوله :

وافاهُ مَرْفُوعَ الجبينِ كأَنَّهُ ∴ سُقْراطُ جَرَّ إلى القُضاةِ رِداءَ

شَيْخٌ تمالَكَ سِنَّهُ لمْ ينفجرْ ∴ كالطفلِ من خوفِ العقابِ بُكاءَ

في هذين البيتين يصور حال المختار عند الإعدام، فشبهه بسقراط الذي أعدم بأمر القضاة، ولكنه أعدم مرفوع الجبين لم يبك مثل الطفل من خوف العقاب، وهذه الصورة تكشف عن شجاعة المختار وعدم خوفه من الإعدام؛ وتبرز خسة الغرب المستعمر، الذين قال عنهم الشاعر:

إني رأيتُ يَدَ الحضارةِ أُولِعَتْ ∴ بالحقِّ هدْمًا تارةً وبِناءَ

---

(١) انظر: شوقي شاعر العصر الحديث: شوقي ضيف ، ص٤٦.

فجعل للحضارة يدا، تكيل بمكيالين فتنصر الحق لأعوانهم وتهدم الحق لمن لـه حـق كالمختـار وغيـره (علـى سـبيل الاسـتعارة المكنيـة أو المجـاز المرسـل علاقته الجزئية)، وهذه الصورة تكشف عن ظلم الغرب المستعمر، وتعديه على حقوق الشعوب المحتلة .

وتأمل هذه الصورة التي ساقها الشاعر في صيغة استفهام فقال :

أمْ أَلْجَمَتْ فـاكَ الخطـوبُ وحَرَّمـت ∴ أُذْنَيْـكَ حـينَ تُخاطَـبُ الإِصْـغاءَ؟

جعل لفم الشعب لجاما مثل لجام الفرس؛ فأسكته عن قول الحق، وجعله يتغاضى عما يحدث في بلاده من أمور وأحداث يندى لها الجبين.

وجعـل الشـاعر الأعبـاء وهـي أمـر معنـوي تُحمـل علـى الشـباب ليتحملـوا المسئولية، فقال:

وأَرِحْ شيوخَكَ من تكـالِيفِ الـوَغَى ∴ واحْمِـلْ عَلَـى فِتْيانِـكَ الأَعْبـاءَ

ومن صوره الرائعة التي تصف لحظة الإعدام قوله:

وتخيُّـروا الحبـلَ المَهِـينَ مَنيَّـةً ∴ للَّيْـثِ يلفِـظ حوْلَـهُ الحَوْبـاءَ

شبه المختار بالأسد الذي يلفظ أنفاسه حول هذا الحبل المهين، وهذه الصورة تكشف عن شجاعة المختار، ومقاومته حتى في آخر لحظات حياته .

ومن الغريب أن وجدت صورا كلية في قصيدة شوقي وهو رائد الكلاسيكية، مثل تصويره لموقف مجيء المختار أسيرا بين يدي الطليان ، يقول :

الأُسْدُ تـزأَرُ فـي الحديـدِ ولـن تَـرى ∴ فِـي السِّـجنِ ضِـرْغامًا بَكـى استِخْذاءَ

وأتَـى الأَسـيرُ يَجُـرُّ ثِقْـل حديـدِهِ ∴ أَسَـدٌ يُجَـرِّرُ حَيَّـةً رَقْطَـاءَ[1]

عَضَّـتْ بِسـاقَيْهِ القُيـودُ فلـمْ يَنُـؤْ ∴ ومَشَـتْ بهَيْكلـهِ السـنون فنـاءَ

فهذه الصورة موحية نابضة بالصوت والحركة، شبه الشاعر المختار بالأسد الذي يزأر وهو مقيد بالقيود الحديدية التي تشبه الحية السامة، التي يدوسها

---

(١) الرقطاء: دويبة من أخبث الدواب إذا دبت على طعام سمته ، والرُّقْطَة: سواد تشوبه بياض أو بياض تشوبه نقط سوداء، لسان العرب: ، مادة: (رق ط).

ويدهسها، وجعل هذه القيود الحديدية تعض على سبيل الاستعارة المكنية، ولكنها لا تؤثر فيه كما أثرت فيه السنون، وجعل السنين تمشي على سبيل الاستعارة المكنية، فاستطاع أن يبث الحياة في الجمادات، وهو منحى رومانسي.

ومن صوره الكلية التي تصور لحظة الحكم عليه بالإعدام، قوله :

تِسْعُونَ لو رَكِبَتْ مناكِبَ شاهقٍ ∴ لتَرجَّلَتْ هَضَباتُه إعياءَ
خَفِيَتْ عن القاضي، وفاتَ نَصِيبُها ∴ من رِفْقِ جُنْدٍ قادةٍ نُبلاءَ
والسِّنُّ تَعْصِفُ كُلَّ قَلْبٍ مُهَذَّبٍ ∴ عَرَفَ الجُدودَ وأَدركَ الآباءَ
دَفعُوا إلى الجلَّادِ أَغْلَبَ ماجدٍ ∴ يأسُو الجِراحَ وَيُطلِقُ الأُسَراءَ
ويُشاطِرُ الأَقرانَ ذُخْرَ سِلاحِهِ ∴ وَيَصُفُّ حَوْلَ خِوانِه الأَعداءَ
وتخيَّروا الحبلَ المَهِينَ مَنيَّةً ∴ للَّيْثِ يلفِظ حوْلَهُ الحَوْباءَ
حَرموا المماتَ على الصَّوارِمِ والقَنا ∴ مَنْ كانَ يُعْطِي الطَّعْنَةَ النَّجْلاءَ

وهذه الصورة قوية صادقة مليئة بالحركة والاضطراب؛ فجعل الشاعر السنين التسعين إذا ركبت جبلا لانهدت هضابه على سبيل الاستعارة المكنية، وفي البيت قبل الأخير شبه المختار بالأسد الذي يلفظ أنفاسه الأخيرة حول الحبل المهين، وهذه الصورة توضح بشاعة الطليان وقسوة قلوبهم، وتبرز قوة المختار وشجاعته.

المبحث السادس

الوحدة العضوية و الموضوعية في التجربتين

الوحدة الموضوعية هي وحدة الموضوع، أما الوحدة العضوية فهي تشمل وحدة الموضوع والجو النفسي، ويستلزم لتحققها تسلسل الأفكار الجزئية وترابطها.

وقد توافرت في قصيدة مطران الوحدة العضوية؛ فهو من رواد الدعوة إليها(١)؛ فكانت القصيدة كما قال العقاد: "عملًا فنيًا تامًا، يكمل فيه تصوير خاطر أو خواطر متجانسة، كما يكمل التمثال بأعضائه، والصورة بأجزائها، واللحن الموسيقي بأنغامه، بحيث إذا اختلف الوضع، أو تغيرت النسبة أخل ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته، ولا يغني عنه غيره في موضعه إلا كما تغني الأذن عن العين أو القدم عن الكف أو القلب عن المعدة"(٢)، وقال الحاتمي وهو من النقاد القدماء عن وحدة القصيدة: "مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه، وتعفى معالمه"(٣).

فقصيدة مطران بناء فني متكامل، وأفكارها مترابطة متسلسلة كل فكرة تقود لما بعدها، فقد استهل قصيدته بمخاطبة الشهيد والثناء عليه وعلى موقفه البطولي، ثم طرح فكرة الرضا بقضاء الله وقدره، ودعم فكرته بتوضيح الحكمة من إعدامه، ودعا إلى التأسي بالمختار رمز الشجاعة، والاستهانة بالموت في

---

(١) انظر مقدمة ديوانه طبع/ دار الهلال، مصر١٩٤٩م ، جـ ١ ، ص ٩.

(٢) الديوان في الأدب والنقد: عباس محمود العقاد، وإبراهيم عبد القادر المازني، مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م، ص١٢٢ ـ ١٢٣ .

(٣) زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري أبو إسحاق الحصري القيرواني ت ٤٥٣هـ ، دار الجيل بيروت، جـ٣ ، ص٦٥١.

سبيل الحرية، ثم ذكر بعض الحكم التي تقوي عزيمة الشعوب وتشد أزرها، وأخيرا أثنى على مصر وطننا الحبيب لوقوفها بجانب البلاد العربية المحتلة.

فكان شعره "شعر البناء الكامل بكل ما فيه من جمال هندسة ورواء فن؛ هو الروضة بكل ما فيها من سناء وعطر ونسيم[1]؛ ومما يدل على تحقق الوحدة العضوية، أن أبياتها مرتبة ترتيبا محكما؛ كل بيت يسلم إلى ما بعده لا يمكن تغيير بيت من مكانه أو حذفه.

وشوقي من شعراء الكلاسيكية الذين يرون أن البيت وحدة القصيد؛ بمعنى أن كل بيت في القصيدة مستقل عما قبله وبعده، وعدوا اتصال البيت بما قبله أو بما بعده عيبا يلحق بقائل الشعر، وفي قصيدة شوقي قلما تجد أن هناك ارتباطا للبيت بما قبله ولا بعده؛ ولكن تحققت فيها وحدة الجو النفسي؛ فقد غلب عليها عاطفة الحزن؛ ووحدة الموضوع وهو رثاء عمر المختار، وقد احتوت على أفكار متعددة؛ فقد بدأها بتمجيد بطولة المختار، ثم الافتخار بشباب بني أمية، وتحدث عن خسارة الأمة بفقدان أبطالها الشجعان كالمختار، ثم تحدث مرة أخرى عن شجاعة المختار وخوضه للمعارك الحربية ضد الطليان والتي كانت السبب وراء إعدامه، فصور مشهد الإعدام ثم صور مشهد الأسر، ثم وضح بشاعة الطليان وقسوة قلوبهم، وأخيرا اتجه إلى مخاطبة الشعوب المحتلة للدفاع عن بلدانها ، فقد جال شوقي في أفكار وخواطر تدور حول الموضوع ، ولكن أفكاره افتقدت عنصر الترتيب ، فقدم مشهد الإعدام على مشهد الأسر؛ فقال:

وافـــاهُ مَرْفُـــوعَ الجبـــينِ كأَنَّـــهُ ∴ سُـقْراطُ جَـرَّ إلـى القُضـاةِ رِداءَ

وبعدها بثلاثة أبيات ؛ قال :

وأتَـى الأَسـيرُ يَجُـرُّ ثِقْـل حديـدِهِ ∴ أَسَـــدٌ يُجَـــرِّرُ حَيَّـــةً رَقْطَـــاءَ

(١) انظر: خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث: ميشال جحا ، ص٢٤١.

عَضَّتْ بِسَاقَيْهِ القُيودُ فلَمْ يَنُؤْ ∴ ومَشَتْ بهَيْكلِه السنون فناءَ

كما أن هناك اضطرابا في ترتيب الأبيات، فقال عن شجاعة المختار:

لكنْ أَخُو خَيْلٍ حمَى صَهَواتِها ∴ وأَدَارَ من أَعرافِها الهَيْجاءَ

وكان من المفترض أن يأتي بعده بهذا البيت التالي بدليل حرف العطف :

وأَخُو أُمورٍ عاشَ في سَرَّائِها ∴ فتغيَّرَتْ، فتوقَّعَ الضرَّاءَ

ولكن فصل بين البيتين بثلاثة أبيات تحدث فيها عن إعدامه .

ملحوظات حول القصيدتين:

أبدع الشاعران في مطلع قصيدتيهما، فقد اختارا الألفاظ والأساليب التي تشد انتباه المتلقي، وتجعله يصغي لما يقولا ، فقال مطران:

أَبَيْتَ والسَّيْفُ يَعْلُو الرَّأْسَ تَسْلِيمَا ∴ وَجُدْتَ بالرُّوحِ جُودَ الحُرِّ إِنْ ضِيمَا

وقال شوقي في مطلع قصيدته :

رَكَزُوا رُفَاتَكَ فِي الرِّمَالِ لِواءَ ∴ يَسْتَنْهِضُ الوَادِي صَبَاحَ مَسَاءَ

كلا الشاعرين مدح المختار ووصفه بالشجاعة والبطولة، وهذا من مقومات الرثاء الجيد، واستخدما صيغة الماضي التي تدل على الثبوت والدوام .

كلا الشاعرين تحدث عن الاحتلال الغاشم وما ارتكبه من جرائم في حق الشعب الليبي عامة، وحق عمر المختار خاصة، فقال مطران:

للهِ يَا "عُمَرُ المُخْتَارُ" حِكْمَتُهُ ∴ فِي أَنْ تُلَاقِيَ مَا لَاقَيْتَ مَظْلُومَا

إِنْ يَقْتُلُوكَ فَمَا إِنْ عَجَّلُوا أَجَلًا ∴ قَدْ كانَ مُذْ كُنْتَ مَقْدُورًا وَمَحْتُومَا

هَلْ يَمْلِكُ الحَيُّ، لَوْ دَانَتْ لَهُ أُمَمٌ، ∴ لِأَمْرِ رَبِّكَ تَأْخِيرًا وَتَقْدِيمَا؟

وقال شوقي:

يَا وَيْحَهُم! نَصَبُوا مَنَارًا مِنْ دَمٍ ∴ تُوحِي إِلَى جِيلِ الغَدِ البَغْضَاءَ

مَا ضَرَّ لَوْ جَعلوا العلاقةَ فِي غَدٍ ∴ بينَ الشعوبِ مَوَدَّةً وإِخَاءَ ؟

جُرْحٌ يَصِيحُ فِي المَدَى وَضَحِيَّةٌ ∴ تَتَلَمَّسُ الحُرِيَّةَ الحَمْرَاءَ

فأبيات مطران تحمل تحديا للمستعمرين الطليان، والاستهانة بأفعالهم؛ فهم لا يملكون من أمرهم شيئا، أما أبيات شوقي فتحمل توبيخا وتهكما للطليان.

وفي بيان موقف المختار من عرض الطليان؛ قال مطران:

أَبَيْتَ والسَّيْفُ يَعْلُو الرَّأْسَ تَسْلِيمَا ∴ وَجُدْتَ بالرُّوحِ جُودَ الحُرِّ إِنْ ضِيمَا

وقال شوقي :

خُيِّرتَ فاخْتَرْتَ المبيتَ على الطَّوَى ∴ لـــم تَـــبْنِ جاهًـــا، أوْ تَلُّـــمَ ثَـــراءَ

تفوق مطران على شوقي فكان بيته أبلغ في وصف شجاعة المختار، فقد جعل المختار يجود بروحه رخيصة في سبيل الحرية ، أما شوقي فجعل المختار أمام خيارين: إما أن ينام على الجوع ويرفض عرضهم، أو ينام وهو شبعان ويقبل عرضهم .

وقال مطران مخاطبا المختار وأمثاله من الأبطال الشجعان مادحا لهم :

هَيْهَـــاتَ نُوفِيـــكَ وَالأَقْـــوَالُ عُـــدَّتُنَا ∴ حَقًا، وَنُـوفِي الصَّـنَادِيدَ المَقَاحِيمَـا

مِنَ الأُولَى صَبَرُوا الصَّبْرَ الجَمِيلَ وَقَدْ ∴ ذَاقُـوا الكَـرِيهَيْنِ تَقْتِـيلًا وَتَكْلِيمَـا

وأثنى شوقي على الأبطال وخاصة شباب بني أمية ؛ فقال:

تِلْـكَ الصَـحَاري غِمْـدُ كُـلِّ مُهَنَّـدٍ ∴ أَبْلَـى فَأَحْسَـنَ فِـي العـدوِّ بَـلاءَ

وقُبُـورُ مَـوْتَى مِـنْ شَـبَابِ أُمَيَّـةٍ ∴ وَكهـولِهم لَـمْ يَبْرَحُـوا أَحْيَـاءَ

تفوق شوقي على مطران فجعل الصحراء مكانا يأوي إليه كل من صبر، وأبلى بلاء حسنا في الدفاع عن وطنه، ولم ينس شباب بني أمية الشجعان أصحاب الانتصارات المدوية؛ في حين لم يذكرهم مطران، وهذا يدل على قوة ذاكرة شوقي وسرعة بديهته.

قال مطران عن المستعمرين:

قَـدْ آثمُـوكُمْ، وَكَـمْ مِـنْ مُثْلَـةٍ نَزَلَـتْ ∴ بِالأَبْرِيَـــاءِ وَبِـــالأَبْرَارِ تَأْثِيمَـــا

وإِنَّمَـا ذَنْـبُكُمْ ذَنْـبُ الأُولَـى جَعَلُـوا ∴ صِدْقَ الهَوَى لِلحِمَى دِينًا وَتَعْلِيمَا

وقال شوقي عنهم:

إنـــي رأيـــتُ يَـدَ الحضـــارةِ أُولِعَـتْ ∴ بـــالحقِّ هـــدْمًا تـــارةً وبِنـــاءَ

شَـرَعَتْ حُقـوقَ النـاسِ فـي أوطـانِهم ∴ إلَّا أُبـــاةَ الضَّـــيْمِ والضُّـــعَفاءَ

كـان شـوقي أكثـر براعـة وتفصـيلا فـي وصـف شـعارات الغـرب الزائفـة؛ فهـذه الحقوق التي ينادون بها غير مكفولة لغيرهم، أما مطران فقد اقتصر على ذكر السبب الذي جعل الشعب يصل إلى ما هو عليه وهو اتباعهم للمستعمر الغاشم.

قال مطران عن البطولة:

مَـا المَـوْتُ إنْ تَـكُ مَنْجَـاةُ الـبِلَادِ بِـهِ ∴ مِنْ غَاصِبٍ وَانْتِصَافُ الشَّعْبِ مَهْضُومَا

هَـذَا هُـوَ العَـيْشُ وَالقِسْـطُ العَظِـيمُ بِـهِ ∴ مِـنْ خَالِـدِ الفَخْـرِ فَـوْقَ العُمْـرِ تَقْوِيمَـا

وقال شوقي عن البطولة :

إنَّ البطولـــةَ أنْ تمـــوتَ مـــن الظَّمـــا ∴ لـــيسَ البطولـــةُ أنْ تَغُـــبَّ المـــاءَ

قصر مطران البطولة على الموت بعزة وكرامة؛ أما شوقي فجعل البطولة الحقة هي الجهاد في سبيل الوطن؛ وإن ترتب على ذلك الموت من الظمأ؛ حيث إن هؤلاء الأعداء يمنعون المياه عن المواطنين المجاهدين في سبيل الحق والعدل ليذلوهم.

مدح مطران أرض العزة والكرامة مصر؛ فقال:

يَـا سَـادَةً أَطْلَعَتْ "مِصْرٌ" بِهِمْ شُـهُبًا ∴ وَاللَّيْـلُ خَـيَّمَ بِالأَحْـدَاثِ تَخْيِيمَـا

فَمَـا وَنَـوْا لِلحِمَـى عَـنْ وَاجِـبٍ وَبَنَـوْا ∴ لِلمَجْـدِ فِيـهِ طِرافًـا كَـانَ مَهْـدُومَا

أَعِـزَّةٌ إنْ بَـدَا مِـنْ فَضْـلِهِمْ أَثَـرٌ ∴ فَكَمْ لَهُمْ مِنْ جَمِيلٍ ظَلَّ مَكْتُومَا ؟

أما شوقي فمدح أفريقيا كلها؛ فقال :

إفرِيقيـــا مَهْـــدُ الأُســـودِ وَلَحْـــدُها ∴ ضَـــجَّتْ عليـــكَ أَراجِـــلًا ونِســـاءَ

كما وجه كلا الشاعرين رسالة للشعب؛ فقال مطران :

لَا حَاكِمًـا دُونَ مَـا أَوْحَـتْ ضَـمَائِرُكُمْ ∴ تُرَاقِبُـــونَ وَلَا تَرْعَـــوْنَ مَحْكُومَـــا

وقال شوقي :

ذهــبَ الــزعيمُ وأنــتَ بــاقٍ خالــدٌ ∴ فانقُــد رِجالَــك واخْتَــرِ الزُّعَمــاءَ

فكلا الشاعرين طلب من الشعب اختيار الزعماء؛ وساق مطران ذلك في صورة حكمة، أما شوقي فوجه أوامر للشعب وخاصة الشباب أن يتحملوا المسئولية ، فقال:

وأَرِحْ شــيوخَكَ مــن تكــالِيفِ الــوَغَى ∴ واحْمِــلْ عَلــى فِتْيانِــكَ الأعْبــاءَ

في حين اعتمد مطران على إقناعهم بهذه الحكمة التي ساقها:

وَمَــا اعْتِــدَالُ زَمَــانٍ لَا يُقَوِّمُــهُ ∴ بَنُــوهُ بِالصَّــبْرِ وَالإِقْــدَامِ تَقْوِيمَــا

الخاتمـــــة

أوجه الشبه والاختلاف في التجربتين

وبعد انتهائي . بفضل الله تعالى وتوفيقه . من إعداد هذه الدراسة، والتي موضوعها:(رثاء عمر المختار بين مطران وشوقي " دراسة تحليلية نقدية موازنة")، يمكنني أن أستنتج أوجه الشبه والاختلاف بين الشاعرين.

أولا: أوجه الشبه:

على الرغم من أن هناك فارقا مذهبيا بين كل من مطران وشوقي إلا أن شعرهما امتاز بالجودة والرصانة والتجديد، وقد حافظ كل منهما على شكل القصيدة العمودية المتمثل في وحدة الوزن والقافية، وكان شعرهما صادقا معبرا عن هذا المصاب الأليم؛ مصورا تفصيلاته بدقة؛ ناقلا ما بداخل أنفسهما من مشاعر وأحاسيس.

١ ـ كانت عاطفة شوقي أكثر صدقا من عاطفة مطران، فقد استطاع أن ينقل إحساسه بالحزن والألم . ويثير شفقة المتلقي، " لقد كان شوقي جد موفق في كل بيت من أبيات القصيدة، وهو إنما صدر فيها عن عاطفة حقة، وعن شعور فياض لما أصاب هذا البطل، كونه فقيدا للإسلام والعروبة، وليس فقيدا لليبيا فقط "[(١)]، أما مطران فقد تأثر في رثائه للمختار بالفلسفة والحكمة لإقناع المتلقي؛ لذا كانت العاطفة عند شوقي أكثر حزنا وحدة من مطران.

٢ ـ كانت ألفاظ مطران رقيقة سهلة في حين بدت ألفاظ شوقي وأساليبه قوية جزلة، وكانت جمل شوقي وعباراته أكثر دلالة على الحزن والألم من ألفاظ مطران، على الرغم من أن شيوع ألفاظ الحزن والألم محور أساس عند الشعراء الرومانسيين؛ أما مطران فقد جاءت ألفاظه وعبارته تحمل معاني التحدي والإصرار والعزيمة ، وساق حكما كثيرة تدعو إلى ذلك؛ وهذا يعد ملمحا

(١) النزعة الإسلامية في شعر شوقي: د.عزت فارس ، ص١٧٢.

كلاسيكيا، كما شاع في قصيدة شوقي بعض الألفاظ القديمة التي تحاكي ألفاظ القدامى كالمتنبي وأبي تمام ، فقد كان معجبا أشد الإعجاب بالمتنبي.

أما قصيدة مطران فقد شاعت فيها الألفاظ الرومانسية الحالمة، وتجلى تأثره بالطبيعة والاتحاد بها، وهذا مظهر من مظاهر تأثره بالأدب الغربي، واستطاع مطران توظيف الجانب الديني في قصيدته على الرغم من أنه مسيحي، وغفل شوقي عن ذلك على الرغم من أن له باعا طويلا في الشعر الإسلامي ، فله مدائح في الرسول . ﷺ ، فقال مخاطبا الرسول . ﷺ (بحر الكامل):(١)

مَـا جِئْـتُ بَابَـكَ مَادِحًـا بَـلْ دَاعِيًـا ∴ وَمِـنَ المَـدِيحِ تَضَـرُّعٌ وَدُعَـاءُ

أَدْعُـوكَ عَـنْ قَـوْمِي الضِّـعَافِ لِأَزْمَـةٍ ∴ فِـي مِثْلِهـا يُلْقَـى عليـكَ رَجَـاءُ

أَدَرى رَســـــولُ اللهِ أَنَّ نُفُوسَـــــهُم ∴ رَكِبَـتْ هَواهَـا وَالقُلُـوبُ هَـواءُ

٣ ـ كانت صور مطران قليلة؛ أدت غرضها في رسم الموقف وأغلبها جزئية قائمة على التجسيم، وخلت قصيدته من الصور الكلية، واستطاع أن يمزج فيها بين المادي والمعنوي والحقيقة والخيال، ولكنها لم ترق لصور شوقي الرائعة القوية، فقد استطاعت أن تفصح عما في نفس الشاعر من أحاسيس وتصور الموقف بدقة، وقد وفق في أكثرها، وجاءت كثيرة متنوعة إما جزئية معبرة قائمة على التشبيه والاستعارة والكناية أو كلية حية نابضة استعان في تشكيلها بحواس الإنسان.

٤ ـ تحققت الوحدة الموضوعية في قصيدة شوقي، ولم تتحقق الوحدة العضوية ، وتجلى في بعض أبياتها الاضطراب في الترتيب ؛ في حين بدت قصيدة مطران متماسكة مترابطة توافرت فيها ملامح الوحدة العضوية .

٥ ـ كان شعر مطران وشوقي يجمع بين الأصالة والتجديد، ولكنهما في هذه القصيدة وفي غيرها من القصائد احتفظا بشكل القصيدة العمودية ذات الوزن الواحد والقافية الواحدة ، فنظم مطران قصيدته على بحر البسيط، ونظم شوقي

---

(١) الشوقيات: أحمد شوقي، ص٤٦.

على بحر الكامل ، واختلفت القافية عند كل منهما ، فكانت القافية في قصيدة مطران الميم الموصولة بالألف، وكانت القافية عند شوقي الهمزة المسبوقة بألف المد، ، وجاءت القافية عند كل منهما ملائمة لجو الحزن ، وتحققت الموسيقا الداخلية بصورها في قصيدتيهما فجاءت ساحرة عذبة تؤثر في قلب المتلقي وتستحوذ على لبه.

٦ ـ على الرغم من أن شوقيا رائد الشعر الكلاسيكي ؛ إلا أن قصيدته قد احتوت على ملامح رومانسية كثيرة، إما لتأثره بشعراء الرومانسية؛ أو رغبة منه في أن يجدد في شعره؛ ليكون ملائما لمتطلبات العصر، ومناسبا لأذواق المتلقين .

٧ـ إن الذي دعا مطران وشوقي إلى رثاء عمر المختار هو التصدي للاستعمار، والتطلع إلى الحرية لكل الشعوب، فالشاعران من قطرين مختلفين والمرثي من قطر آخر؛ مما يدل على الوحدة العربية، وأنهم كالجسد الواحد في المحن والشدائد.

وفي الختام أود أن أشير إلى أن كل ما حققته كان من فضل الله . عز وجل ـ والله أسأل التوفيق في القول والعمل ، وآخر دعواي أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر و المراجع

أولا :

- **القرآن الكريم تنزيل من حكيم حميد**
- **ثانيا** : **الكتب المطبوعة** :

١. آداب اللغة العربية: جرجي زيدان ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ٢٠١٢م.

٢. البداية والنهاية لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ت ٧٧٤هـ ، دار الفكر(١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م) ، جـ٩.

٣. جمهرة اللغة: أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي ت ٣٢١هـ، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، الناشر: دار العلم للملاين، الطبعة الأولى ، ١٩٨٧م ، الجزء الأول.

٤. خليل مطران باكورة التجديد في الشعر العربي الحديث: ميشال جحا أستاذ الأدب الحديث في كلية الآداب الجامعة اللبنانية ، دار الميسرة بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٥. ديوان حافظ إبراهيم، ضبطه وشرحه :أحمد أمين . أحمد الزين . إبراهيم الإبياري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٨٧م.

٦. ديوان الخليل: خليل مطران ، دار الهلال ، مصر١٩٤٩م ، ج١ .

٧. ديوان الخليل: خليل مطران، طبعة جديدة كاملة تحوي كل شعر الناظم مبوبة على حروف الهجاء، دار مارون عبود ، بيروت.

٨. الديوان في الأدب والنقد: عباس محمود العقاد ، وإبراهيم عبد القادر المازني ، الناشر مؤسسة هنداوي ٢٠١٧م

٩. زهر الآداب وثمر الألباب: إبراهيم بن علي بن تميم الأنصاري (أبو إسحاق الحصري القيرواني ت ٤٥٣هـ)، دار الجيل بيروت، جـ٣ .

١٠.شعر الرثاء العربي واستنهاض العزائم، د. عبد الرشيد عبد العزيز سالم، وكالة المطبوعات عبد الله حريمي، الكويت ١٩٨٢م.
١١.الشعر والشعراء لابن قتيبة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣هـ، جـ١.
١٢.الشوقيات (أمير الشعراء أحمد شوقي)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة ٢٠١٢م.
١٣.شوقي شاعر العصر الحديث: شوقي ضيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٠م
١٤.الشيخ الجليل عمر المختار(نشأته ـ جهاده ـ استشهاده)، د. عبد الخالق النجمي، الطبعة الأولى ٢٠١٦م ، دار أمجد للنشر والتوزيع.
١٥.عمر المختار نشأته . أعماله . استشهاده ، د. على الصلابي ، دار الجوزي بالقاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
١٦.مجلة البيان، تصدر عن المنتدى الإسلامي، تاريخ النشر ٨ من ذي الحجة ١٤٣١هـ، العدد ١٩٥ .
١٧.مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر، تحقيق: روحية النحاس، رياض عبد الحميد مراد، محمد مطيع، طبع: دار الفكر، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٤م، جـ٥.
١٨.مدارس الشعر العربي في العصر الحديث، د. صلاح الدين محمد عبد التواب، دار الكتاب الحديث.
١٩.معجم البلدان لياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي، دار الفكر، بيروت، الجزء الأول.
٢٠.مقومات الشعر العربي الحديث والمعاصر (بحث تاريخي وتحليلي مقارن)، تأليف: د. محمود شوكت، ود. رجاء عيد، دار الفكر العربي (د ـ ت).
٢١.الموازنة بين الشعراء (أبحاث في أصول النقد وأسرار البيان)، زكي مبارك، الطبعة الأولى، مطبعة المقتطف والمقطم بمصر.

٢٢.موسيقى الشعر: إبراهيم أنيس، ملتزم الطبع والنشر/ مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٥٢م، مطبعة لجنة البيان العربي.
٢٣.موسيقى الشعر العربي: شكري محمد عياد(مشروع دراسة علمية) ، دار المعرفة، مصر .
٢٤.موسيقى الشعر العربي قديمه وحديثه . دراسة وتطبيق في شعر الشطرين والشعر الحر، د. عبد الرضا علي، دار الشروق للنشر والتوزيع، فلسطين ١٩٩٧م.
٢٥.النزعة الإسلامية في شعر شوقي: د.عزت فارس، الطبعة الأولى١٤٣١هـ ٢٠١٠م ، دار يافا للنشر والتوزيع.